الإصْلَاح الإسْلامي في مجال العِبَادة

- لا يُعبد إلا الله.
- تحرير العبادة من رق الكهنوت.
- إخلاص القلوب أساس القبول.
- لا يُعبد الله إلا بما شرع.
- التوازن بين الروحية والمادية.
- اليسر ورفع الحرج.

obeikandl.com

obeikandl.com

● تمهيد

إن لعنة الجاهلية لم تدع شيئًا دون أن تصيبه بالعقم والفساد. أفسدت العقائد والأفكار، وأفسدت العبادات والشعائر، وأفسدت الأخلاق والآداب. وأفسدت النظم والتقليد، وأفسدت الحياة كلها، ولم يبق شيء من دين الله المنزل على أنبيائه إلا ناله رذاذ من هذا الشر المستطير.

وحينما أراد الله أن يبعث خاتم رسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، كان في العالم ألوان من الشعائر والعبادات، بعضها بقايا أديان سماوية قديمة، وبعضها إضافات، وابتداعات أرضية جديدة، بعضها مسخت صورته ومعناه، وبعضها بقيت صورته وإن مسخ معناه، فلم يعد يوجه إلى مستحقه وهو الله وإنما يتوجه به العابدون إلى إله أو آلهة أو سماسرة آلهة في الأرض أو في السماء!

أديان بالغت في الرسوم والشكليات ففقدت الروح والإخلاص. وأديان تحررت من كل رسم وشكل، ففقدت معنى التعبد والابتلاء.

أديان تشددت وتعنتت وتزمتت حتى لكأنها إصر وأغلال، وأخرى ترخصت وغلت في الترخص، حتى لكأنها لهو ولعب.

وجاء الإسلام، فلم يمل مع الغالين، ولم ينحرف إلى المقصرين، بل شرعه الله ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ لا عوج فيه، ولا غلو ولا تقصير، بل كان كما خاطب الله رسوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٤].

أجل. . جاء الإسلام بعدة توجيهات ومبادئ إصلاحية كانت هي حجارة الأساس، التي يقوم عليها صرح العبادة الشعائرية في الإسلام، ونحن نذكرها فيما يلي من الصحائف.

١- لا يُعبد إلا الله

● منذ أكثر من ألفي سنة قال المؤرخ اليوناني المشهور بلوتارك بعد فحص واستقراء: «من الممكن أن نجد مدنًا بلا أسوار، ولا ملوك ولا ثروة، ولا آداب ولا مسارح. لكن لم ير إنسان قط مدينة بلا معبد، أو لا يمارس أهلها العبادة».

وما سجل التاريخ هذه الحقيقة إلا لأن الاتجاه إلى الخالق الأعلى مركوز في الفطرة البشرية، نابع من أعماق النفس. . غير أن هذا الشعور الأصيل كثيرًا ما أخطأ الطريق إلى معبوده الحق «الله جل جلاله» وجرفته تيارات الجهل أو الغفلة أو التضليل، فعبد غير الله، أو عبد معه آلهة شتى، أو عبده بغير ما شرعه ورضيه من صور التعبد.

ولذا كانت مهمة الرسل أن يوجهوا الفطرة وجهتها السليمة إلى الله، وأن يحفظوا ذلك الشعور الأصيل من الانحراف، حتى لا يعبد الإنسان إلا الله، ولا يشرك به شيئًا، ولا يتخذ بعض المخلوقات أربابًا من دونه.

وفي الفترات التي طال فيها الأمد على دعوة الرسل فنسيت أو حرفت، ضل الناس وعبدوا أنواعًا من الآلهة لا يكاد العقل يصدقها.

فهناك قوم عبدوا الشمس، كما حكى القرآن عن ملكة سبأ وقومها على لسان هدهد سليمان: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: ٢٤].

ومنهم من عبد القمر والكواكب. . كقوم إبراهيم ومن بعدهم من الصابئة.

ومنهم من عبد النار كالمجوس، الذين بنوا لها البيوت الكثيرة، ووقفوا لها الأوقاف، واتخذوا لها السدنة والحجاب، فلا يدعونها تخمد لحظة واحدة.

ومن عبادتهم لها: أن يحفروا لها أخدودًا مريعًا في الأرض ويطوفون به. وهم أصناف مختلفة:

فمنهم من يحرم إلقاء النفوس فيها وإحراق الأبدان بها، وهم أكثر المجوس.

وطائفة أخرى منهم تبلغ بهم عبادتهم لها أن يقربوا أنفسهم وأولادهم لها! !

وهناك طائفة عكس هؤلاء عبدوا الماء من دون الله وتسمى «الحلبانية» وتزعم أن الماء لما كان أصل كل شيء، وبه كل ولادة ونمو ونشوء وطهارة وعمار، كان حقه أن يُعبد!!.

وهناك طوائف كثيرة عبدوا الحيوانات: فطائفة عبدت الخيل، وطائفة عبدت البقر -كقدماء المصريين قديمًا الذين عبدوا عجل أبيس، وكالهندوس حتى اليوم-.

وهناك طائفة عبدت البشر الأحياء والأموات.

وطائفة عبدت الشجر، وطائفة عبدت الجن كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

وهناك من عبد الأصنام والأوثان. وهذا داء قديم منذ عهد قوم نوح الذين اتخذوا من دون الله ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا. وقد روى ابن عباس أنها كانت في الأصل صورًا لبعض موتاهم الصالحين اتخذوها لتذكرهم بهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوها.

وفي بلاد كالهند، قد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس الميلادي، وأصبح عدد الآلهة في هذا القرن ٣٣٠ مليون. وقد أصبح كل شيء رائع، وكل شيء جذاب، وكل مرفق من مرافق الحياة، إلهًا يعبده الناس! وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلهات الحصر، وأربت على العد[1].

وكانت عبادة الأصنام قد انتشرت في ديار العرب قبل الإسلام انتشارًا ذريعًا. قال ابن إسحاق: واتخذ أهل كل دار في دارهم صنمًا يعبدونه، فإذا أراد رجل منهم سفرًا تمسح به، وإذا قدم من سفر تمسح به، فيكون آخر عهده به وأول عهده به.

وقال أبو رجاء العطاردي: كنا نعبد الحجر في الجاهلية فإذا وجدنا حجرًا هو أحسن منه نلقى ذلك ونأخذه، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا حثية من تراب، ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه، ثم طفنا به.

---

(١) انظر: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للسيد أبي الحسن الندوي ص ٣٧ ط ثانية.

وكذلك قال عمرو بن عبسة : «كنت امرءًا ممن يعبد الحجارة؛ فينزل الحي ليس معهم إله ، فيخرج الرجل منهم ، فيأتي بأربعة أحجار فينصب ثلاثة لقدره ، ويجعل أحسنها إلهًا يعبده ، ثم لعله يجد ما هو أحسن منه قبل أن يرتحل ، فيعتزله ويأخذ غيره»! !

ترى أي هوان أصاب الإنسان وأي ضلال لحقه حتى ركب هذه الأضاليل؟

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنمًا ، فجعل يطعن بسيفه في وجوهها وعيونها ويقول : ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء : ٨١] وهي تتساقط على رؤوسها ، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت.

حتى القوم الذين كانوا قريبي العهد بالكتب السماوية والنبوات الهادية - وهم اليهود والنصارى - ضلوا طريق التوحيد ، وزحفت عليهم الوثنيات ، فأفسدت عليهم دينهم.

فاليهود فسد تصورهم للألوهية ، ونسبوا إلى الله ما لا يجوز أن يُنسب إليه من صفات النقص ، فهو تعالى عما يقولون - يجهل ويندم ويتعب ويصارع ويُصرع إلى آخر ما في أسفار العهد القديم.

والنصارى غزتهم الوثنية ، فتسرب دين المسيح من بين أيديهم ، كما يتسرب الماء من بين الأصابع! والمؤسف حقًّا أن ديانة المسيح الحقة لم تكد تعيش على سلامتها وتوحيدها إلا فترة قصيرة جدًّا ، ثم رزئ تاريخها برجلين حرفاها شر تحريف : أحدهما : رجل دين والثاني رجل مُلك.

فالأول : هو سانت «بولس» الذي طمس معالمها وأطفأ نور التوحيد فيها ، وطعمها بخرافات الجاهلية التي انتقل منها ، والوثنية التي تأثر بها.

والثاني : هو الملك قسطنطين الذي قضى على البقية الباقية -فقد جمع الأساقفة والبطارقة ليتناظروا ويخلصوا إلى عقيدة يتفقون عليها. وقد انتهوا إلى تلك العقيدة العجيبة[1] : الإيمان بالله الواحد الأب ، وبالرب يسوع المسيح ابن الله! إله حق من إله حق! تجسد من روح القدس وصار إنسانًا وحُمل به ثم ولد من مريم البتول ، وأَلِمَ وشُج وقُتل وصُلب ودُفن. . إلخ.

(١) التي اتخذها مجمع نيقية سنة ٣٢٥م.

وهكذا أصبحت النصرانية مزيجًا من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية.

والمهم أن القوم عبدوا المسيح الذي كان من أشد الناس عبادة لله واعترافًا بعبوديته لربه! واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وأسرف المسيحيون في عبادة القديسين والصور المسيحية، كما يقول «سيل» - مترجم القرآن إلى الإنجليزية - عن نصارى القرن السادس.

● دعوة الإسلام إلى عبادة الله وحده

ذلك هو الشرك الذي طم سيله في الآفاق قبل الإسلام. وتلك هي الوثنية الجاهلية التي سادت العالم القديم، فماذا كان موقف الإسلام من الشرك بكل مظاهره وأنواعه؟

لقد جاء الإسلام يدعو إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة كل ما سواه ومن وسواه من الآلهة المزعومين، والأرباب المزيفين، سواء أكانوا من البشر أم من الجن أم أى عالم من عوالم المخلوقات العلوية والسفلية. إن روح الإسلام هو التوحيد، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، الذي هو إفراد الله بالعبادة -وأن عنوان الإسلام هو تلك الكلمة العظيمة التي هي أفضل ما قاله محمد ﷺ والنبيون من قبله «لا إله إلا الله» إحدى كلمتي الشهادة في الإسلام.

إن سر الإسلام - على سعة تعاليمه - يتجلى في دستوره الخالد: القرآن الكريم، وسر هذا الدستور يتركز في فاتحته: أم القرآن والسبع المثانى. وسر هذه الفاتحة يتلخص في هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ : أي لا نعبد شيئًا ولا أحدًا غيرك، ولا نستعين بكائن سواك.

إن أول وصية في القرآن، وأول مبدأ يبايع عليه الرسول كل من اعتنق دينه أن ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

وأول ما دعا إليه رسول الإسلام ملوك الأرض وأمراءها هو هذه القضية الكبرى: أن يُعبد الله وحده لا شريك له، وأن تُطرح الآلهة والأرباب التي اتخذها الناس من دون الله، فأذلوا أنفسهم لمن لا يستحق الذل والخضوع.

ومن هنا كان الرسول ﷺ يختم رسائله إلى قيصر والنجاشي، وغيرهما من أصحاب الملك والإمارة بهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

بل أكد القرآن أن هذه الدعوة هي دعوة الرسل جميعًا، فكلهم دعا قومه إلى عبادة الله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت. وكل ما عُبدَ من دون الله فهو طاغوت. فهما معبودان لا ثالث لهما: إما الله وإما الطاغوت. ومن استكبر عن عبادة الله سقط -حتمًا- في عبادة الطاغوت. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال سبحانه مخاطبًا خاتم رسله محمدًا ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

شدَّد الإسلام حملته على الشرك، وقعد له كل مرصد، وحاربه بكل سلاح، وقرر أنه الإثم العظيم، والضلال البعيد، والجرم الأكبر، والذنب الذي لا يغفر. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦].

وفي الصحيح: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار»[(١)] «ومن لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار»[(٢)]. كل ذنب يمكن أن يغفره الله بفضله وكرمه، ويمكن أن يقبل فيه شفاعة الشافعين، إلا الإشراك بالله تعالى.

في الحديث القدسي: «يا ابن آدم. . إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتنى لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة»![(٣)].

---

(١) رواه البخاري من حديث ابن مسعود. (٢) رواه مسلم من حديث جابر.
(٣) رواه الترمذي وحسنه من حديث أنس، ومسلم وأحمد بمعناه من حديث أبي ذر، والطبراني من حديث أبي ذر.

ففي هذه الآيات والأحاديث أن أهل التوحيد الخالص - الذي لا يشرك صاحبه بالله شيئًا -أي شيء- يُعفى لهم ما لا يُعفى لغيرهم؛ لأن التوحيد المحض يحرق الذنوب والخطايا وإن كانت مثل زبد البحر، كما أن الشرك يمحق الحسنات وإن كانت عدد الرمل.

لقد كان الإسلام على الحق - كل الحق - حين وقف موقفه الصارم من الشرك بكل أنواعه. وحرَّم - أشد التحريم - أن توجه العبادة إلى غير الله جل ثناؤه.

فالعبادة - كما قال ابن سيده - نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم، كالحياة والفهم والسمع والبصر. . . لأن أقل القليل من العبادة يكبر عن أن يستحقه إلا من كان له أعلى جنس من النعمة، ألا وهو الله سبحانه. فلذلك لا يستحق العبادة إلا الله[1].

وقال الإمام الرازي[2]:

إن العبادة عبارة عن نهاية التعظيم، وهي لا تليق إلا بمن صدر عنه غاية الإنعام. وأعظم وجوه الإنعام: الحياة التي تفيد المُكنة من الانتفاع، وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]. وقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾؟ [البقرة: ٢٨] الآية.

وخلق ما يتنفع به من الأشياء وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

ومثله قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]. اهـ.

والحقيقة التي لا ريب فيها أن النعم التي تحيط بالإنسان في كل أطوار حياته، وتغمره من قرنه إلى قدمه، إنما هي من عند الله. كما قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

---

(١) المخصص جـ ١٣ ص ٩٦.

(٢) التفسير الكبير جـ ١ ص ٢٤٢ بتصرف.

يقول ابن القيم في «شفاء العليل» :

«الرب تبارك اسمه ، وتعالى جده ولا إله غيره - هو المنعم على الحقيقة بصنوف النعم. التي لا يحصيها أهل سماواته وأرضه.

فإيجادهم نعمة منه. . وجعلهم أحياء ناطقين نعمة منه. . وإعطاؤهم الأسماع والأبصار والعقول نعمة منه.. وإدرار الأرزاق عليهم - على اختلاف أنواعها وأصنافها - نعمة منه. . وتعريفهم نفسه بأسمائه وصفاته وأفعاله نعمة منه. . وإجراء ذكره على ألسنتهم ، ومحبته ومعرفته على قلوبهم ، نعمة منه. . وحفظهم بعد إيجادهم نعمة منه. . وقيامه بمصالحهم دقيقها وجليلها نعمة منه. . وهدايتهم إلى أسباب مصالحهم ومعايشهم نعمة منه ، وذكر نعمه تعالى على سبيل التفصيل لا سبيل إليه ولا قدرة للبشر عليه».

فلهذا كان هو وحده الجدير بأن يُعبد ، ولا يُشرك معه أحد ولا شيء في الأرض أو في السماء.

لم يكن الإسلام متعنتًا ولا متزمتًا إذن ، حين قاوم الشرك إلى هذه الدرجة ، فالشرك - في الحقيقة - هوان لا يليق بكرامة الإنسان. وأي هوان يصيب الإنسان أشد من هذا الشرك الذي يُسَخِّر الإنسان المُكَرَّم للحيوان والجماد ، ويخيفه مما لا يخاف ، ويُرجيّه فيما لا يرجى؟ !

ثم إن الشرك - فضلًا عما فيه من انحطاط وقذارة وهوان بالإنسان - هو كذب على الحقيقة ، وتزوير على الواقع ، وصدق الله : إذ يقول : ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج : ٣١].

أعلن الإسلام الحرب على هذا الشرك الضال المضل بكل ألوانه وأصنافه ، ورفع من قيمة الإنسان ، وأعلن أنه المخلوق المكرّم المفضل المستخلف لله في الأرض ، المصوَّر في أحسن صورة وأحسن تقويم.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء : ٧٠] ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠] ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين : ٤] ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن : ٣] ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق : ٥] ﴿وَسَخَّرَ

لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: ١٣].

فكيف يسجد الإنسان لهذه المخلوقات وهي له مسخرة، وفي مصلحته وخدمته مذللة؟ وكيف يسجد لها وقد سجدت الملائكة بأمر الله تحية له واحتفاء به ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ [ص: ٧١ - ٧٤].

أعلن الإسلام أنه ليس في العالم المخلوق شيء يستحق أن يسجد له الإنسان أو يتضرع إليه أو يرجوه أو يخشاه!

فالملائكة عباد لله خاشعون خاضعون ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠] ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧، ٢٨].

والبشر -وإن علا سلطانهم، أو عظم قدرهم، أنبياء كانوا أم سلاطين، هم أيضًا عباد لله، لا يملكون لأنفسهم، فضلًا عن غيرهم، ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

والعبودية هي الوصف اللازم لهم جميعًا ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

والشمس والقمر والنجوم إن هي إلا كواكب مسخرات بأمره تعالى، لا يجوز أن ينحني صلب من أجلها راكعًا، أو يخرّ وجه من أجلها ساجدًا ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وكل ما يُدْعى من دون الله في الأرض أو السماء، هو مخلوق عاجز لا قدرة له، محتاج لا قيام له بذاته، ضعيف لا يقوى على حماية نفسه ولا غيره ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ

قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤] ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾

[الإسراء: ٥٦، ٥٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

● سد الذرائع المفضية إلى الشرك

وقد احتاط الإسلام كل الاحتياط، فسدَّ كل ذريعة تُفضي إلى الشرك أو مشابهة المشركين.

فنجد نبي الإسلام ﷺ يرفض في شدة وصراحة كل مبالغة في تعظيمه تظهره في غير مظهر العبودية لله، التي لا يفخر بغيرها. فيقول لأصحابه: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، وقولوا عبد الله ورسوله» متفق عليه.

وروى النسائي عن ابن عباس: أن رجلًا قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. . فقال: «أجعلتني لله ندًّا؟ ! قل: ما شاء الله وحده».

وروى الطبراني: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق. . فقال النبي ﷺ: «إنه لا يُستغاث بي وإنما يُستغاث بالله».

وهكذا علَّمهم النبي ﷺ أن يعطوا كل ذي حق حقه. فالعبد عبد والرب رب.

وروى النسائي عن أنس - بسند جيد - أن أناسًا قالوا: يا رسول الله. . يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا، وابن سيدنا، فقال: «يا أيها الناس. . قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل». وفي رواية أنه قال لهم: «السيد الله تبارك وتعالى».

إن الجماهير دائمًا تميل إلى الغلو في تعظيم القادة، بعضهم عن إخلاص. وبعضهم عن ملق. فكيف إذا كان القائد نبيًّا؟ وكيف إذا كان سيد النبيين؟ !

ولكن النبي ﷺ لقّنهم درسًا ألا يتجاوزوا به حد العبودية: «أنا محمد عبد الله ورسوله».

كما علمهم أن يعلنوا كل يوم تسع مرات، في الصلوات المفروضة، فضلًا عن السنن والنوافل كلما جلسوا للتشهد: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله»[1].

● لا تتخذوا القبور مساجد

إن الغلو في تعظيم الصالحين والقديسين في حياتهم، والتبرك بآثارهم وقبورهم بعد مماتهم، هما أوسع أبواب الشرك بالله، وقد سدَّهما النبي ﷺ سدًّا منيعًا. فلم يقر أحدًا على الغلو في تعظيمه حيًّا أو تعظيم قبره ميتًا، بل دعا ربه فقال: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد. اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[2].

وعن علي بن الحسين - زين العابدين - رضي الله عنهما: أنه رأى رجلًا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فنهاه وقال ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ؟. . قال: «لا تتخذوا قبري عيدًا ولا بيوتكم قبورًا فإن تسليمكم ليبلغني أينما كنتم»[3].

وفي الصحيح عن عائشة: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح - أو العبد الصالح - بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور. أولئك شرار الخلق عند الله».

فهؤلاء - كما قال العلماء - جمعوا بين فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود.
(٢) رواه مالك في الموطأ.
(٣) رواه الضياء في المختارة.

وروى الشيخان عنها: أن النبي ﷺ - وهو في اللحظات الأخيرة له يودع الدنيا ويستقبل الآخرة - كان يقول: «لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خُشِي أن يُتخذ مسجدًا.

وكل هذا احتياط من النبي ﷺ لأمته، فالقليل يجر إلى الكثير، والصغير يدفع إلى الكبير، فربما تدرج بهم الأمر إلى تلك القبور فعظموها مع الله. وأصبحت شبيهة بالأصنام تبركًا وتمسحًا بها، وطوافًا حولها، وتقبيلًا لجوانبها، والتماسًا للبركات عندها أو منها، كما يفعل ذلك اليوم بعض الضالين من المسلمين، ويعتذر لهم بعض الخادعين أو المخدوعين.

وقد روى أهل العلم في أصنام قوم نوح «ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر» أنها أسماء قوم صالحين، لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم!

وقد أنكر أصحاب الرسول ﷺ كل ما يُشْتَم منه رائحة التقديس لمكان أو شيء من مخلوقات الله، فعن المعرور بن سويد قال: صليت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في طريق مكة صلاة الصبح. . ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المؤمنين. مسجد صلى فيه النبي ﷺ فهم يصلون فيه، فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا؟ كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعًا، فمن أدركته الصلاة منكم في هذه المساجد فليصل، ومن لا فليمض ولا يتعمدها. وكذلك أرسل عمر رضي الله عنه أيضًا فقطع الشجرة التي بايع تحتها أصحاب رسول الله ﷺ.

كما نهى الرسول الكريم ﷺ عن الصلاة عند طلوع الشمس أو عند زوالها أو عند غروبها، بعدًا بالمسلم عن مظنة المشابهة لعبّاد الشمس الذين يسجدون لها في هذه الأوقات.

● **لا حلف إلا بالله**

ومما منعه النبي ﷺ أن يحلف المسلم بغير الله تعالى، فالحلف تعظيم وتقديس للمحلوف به، ولا ينبغي أن يكون التعظيم والتقديس إلا للخالق جل وعلا. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «من كان حالفًا فلا يحلف إلا بالله»[١] «من حلف بغير الله فقد أشرك»[٢] «لا تحلفوا بآبائكم»[٣]. وكانوا يحلفون فيقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة[٤].

● **لا ذبح ولا نذر إلا لله**

وحرّم الإسلام على المسلم أن يذبح لغير الله فقال عليه الصلاة والسلام «لعن الله من ذبح لغير الله»[٥].

وقد جعل من الأطعمة المحرمة ما أُهِلَّ لغير الله به -أي رفع الصوت عند ذبحه باسم غير الله- وكذلك ما ذُبح على النُصب[٦].

وهكذا حمى الإسلام جناب التوحيد، وسدَّ منافذ الشرك.

● **أوثان جديدة يجب الحذر منها**

ومن واجبنا ونحن نبين تحذير الإسلام من الشرك بكل صوره - أن ننبه على أوثان جديدة غزت عقيدة التوحيد الخالصة في هذا العصر. إن بعض السطحيين من المتدينين أنفسهم يحصرون الشرك وعبادة غير الله في صورة واحدة، هي الوثنية التقليدية التي تتمثل في عبادة إلٰه أو آلهة مجسمة أو منظورة، تُقدّم الصلوات والقرابين إليها، وتُلتمس المنافع والبركات من بين يديها.

ونسى هؤلاء أن الشرك مراتب وأنواع، وأن الأصنام منها ما يُرى ومنها ما لا يُرى. وأن العبادة منها التقليدي وغير التقليدي.

---

(١) رواه النسائي.
(٢) رواه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه.
(٣) رواه ابن ماجه بسند حسن.
(٤) رواه النسائي وصححه.
(٥) رواه البخاري.
(٦) انظر: كتابنا «الحلال والحرام»: ص ٤٦ - ٤٨ ط. خامسة.

من الشرك أكبر وأصغر، ومنه جلي وخفي. بل منه ما هو أخفى من دبيب النمل على الصفا.

ومن الأوثان ما يعبده الناس ويقدمون له الولاء، وإن لم يسموه وثنًا أو إلٰهًا أو ربًّا. ولم يسموا ما يقدمونه إليه عبادة. ولكن العبرة بالمقاصد لا بالألفاظ، وبالمسميات لا بالأسماء.

لهذا حذَّر الإسلام من الشرك كله: أكبره وأصغره، جليه وخفيه، وأغلق كل المنافذ التي تهب منها ريحه السموم، حماية لحمى التوحيد.

حتى رأينا النبي ﷺ يعد الرياء شركًا..

ويعتبر القسم بغير الله شركًا..

وينكر على من قال له: ما شاء الله وشئت يا رسول الله، فيقول له: «أجعلتني لله ندًّا؟! قل: ما شاء الله وحده».

وينهي أن يقول المسلم: هذه لله وللرحم، أو لوجه الله وفلان. فإن الله لا يقبل الشركة. وإنه لأغنى الأغنياء عن الشرك.

كما رأيناه ﷺ يعد تقديس المقابر والأضرحة ضربًا من الوثنية. وهذا ما جعله يدعو ربه فيقول: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد».

بل رأينا القرآن الكريم يلفتنا إلى «وثن» أو «إلٰه» خطير، يتعبد له الملايين وهم لا يشعرون، وذلك هو «الهوى». ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

وفي عصرنا هذا ظهرت أوثان ومعبودات شتى، أصبحت تمتلك قلوب الناس ومشاعرهم وولاءهم، بذكرها يهتفون، وباسمها يقسمون، وفي سبيلها يجاهدون ويستشهدون. تلك هي أوثان الوطنية والقومية وما شاكلها.

تدخل المدارس والجامعات، وتشهد المؤتمرات والندوات، وتقرأ الصحف والمجلات، وتسمع برامج الإذاعات، فلا تكاد تسمع لله ذكرًا. أو تجد له مكانًا. وإنما تجد معبودًا آخر، تدور حوله كل الأفكار، وكل المشاعر، وكل الأعمال، إلا القليل، أو أقل من القليل.

إنه «الوطن» أو القومية - العروبة مثلًا - أو المجتمع أو الدولة أو غير ذلك من أصنام هذا العصر.

ومن السائد المنتشر الآن البداءة باسم الوطن أو الشعب، وإن تكرم فباسم الله واسم الشعب، والحلف باسم الوطن أو الشعب «أقسمت باسمك يا بلادي» والجهاد في سبيل الوطن أو العروبة، فإن قتل فهو شهيد الوطن أو العروبة ونحوها.

وهذا هو أخطر أنواع الشرك التي دخلت على المسلمين من حيث لا يشعرون. وسجلها الدارسون الأيقاظ، بوصفها ظاهرة جديدة في حياة المسلمين.

يقول الأستاذ برنارد لويس:

«كل باحث في التاريخ الإسلامي يعرف قصة الإسلام الرائعة في محاربته لعبادة الأوثان منذ بدء دعوة النبي ﷺ وكيف انتصر النبي ﷺ وصحبه وأقاموا عبادة الإله الواحد التي حلّت محل الديانات الوثنية لعرب الجاهلية، وفي أيامنا هذه تقوم معركة مماثلة أخرى ولكنها ليست ضد «اللات» و «العزى» وبقية آلهة الجاهلية، بل ضد مجموعة جديدة من الأصنام اسمها: الدولة، والعنصر والقومية. وفي هذه المرة يظهر أن النصر حتى الآن هو حليف الأصنام!!! فإدخال هرطقة القومية العلمانية أو عبادة «الذات الجماعية» كان أرسخ المظالم التي أوقعها الغرب على الشرق الأوسط، ولكنها مع كل ذلك كانت أقل المظالم ذكرًا وإعلانًا[1].

* * *

(١) من كتاب الغرب والشرق الأوسط.

٢-تحرير العبادة من رق الكهنوت

لقد أفسد الناس الأديان. . أنزلها الله لتسمو بهم فهبطوا هم بها! والعجب أن فسادها كان من رجال الأديان أنفسهم. لقد جعلوا من أنفسهم حجَّابًا على باب الله الفسيح. مهمتهم أن يمنعوا الناس الاتصال المباشر به أو التقرب المباشر إليه ، إنهم احتكروا لأنفسهم الصلة بالله والقرب منه. ووجدوها بضاعة رائجة وسلعة تشتد الحاجة إليها ، فبالغوا في احتكارها وإغلاء أسعارها.

ومن ثم قيّدوا العبادات بمكان معين - يدخل في سلطتهم - لا تجوز إلا فيه ، وقيّدوها بوسيط معين ، يقوم بعملية السمسرة بين الله وعباده ، وقيّدوها بمراسم وطقوس كهنوتية خاصة لا تُقبل بدونها.

وكل هذا يحتاج إلى إتاوات تبذل ، وجعالات تدفع للأحبار والكهنة ، المحتكرين لهذا الصنف من العلاقات!

● رجال الكهنوت في العصور الوسطى

وقد بالغ رجال الدين المسيحي بالغرب في العصور الوسطى في فرض هذه المظاهر الكهنوتية فعلقوا في معابدهم رسومًا وتماثيل للعذراء والمسيح ، وأيقونات ونحوها ، وعدَّتها الكنيسة شعائر تعبدية واجبة التقديس.

وكان أعجب ما صنعوه أنهم اتخذوا من الجنة مصدرًا للثروة يبيعون منها قراريط وأسهمًا لمن يدفع الثمن المعلوم ، وعلى قدر المدفوع يكون عدد الأسهم. ومن الطرائف اللاذعة ما حكوا أن أحد أثرياء اليهود أراد أن يقابل هذه السخريات العجيبة بسخرية أمر وأعجب ، فقد ذهب إلى أحد البابوات ولم يشتر منه الجنة ، كما كان يفعل المسيحيون. ولكنه اشترى منه صفقة أخرى هي جهنم! فباعها له بثمن بخس؛ لأنها سلعة لا يرغب فيها أحد ، ولكن اليهودي الماكر أعلن للمسيحيين جميعًا : ألّا يبالوا بشراء الجنة بعد اليوم ،

لأنه هو قد اشترى من البابا جهنم، ولن يدخل أحدًا فيها! ! قالوا: فعاد البابا واشتراها بأضعاف ما باعها به!

وكل قارئ للتاريخ يعرف ثورة «لوثر» على ما أسموه «صكوك الغفران»[1].

والرؤساء الروحانيون في المسيحية يزعمون أن لهم سلطة المنح والمنع، والغفران والحرمان، والإدخال في رحمة الله، والطرد منها، لأن المسيح قال لبعض تلاميذه: «سأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما ربطته في الأرض يكون مربوطًا في السموات، وكل ما حللته على الأرض يكون محلولًا في السموات» (متى ١٦: ١٩).

● تحرير العبادة من قيود المكان

أما الإسلام فكان له شأن آخر في تقرير الصلة بالله والعبادة له.

لقد حرَّر الإسلام العبادة من قيود الوساطة والمكان وكل مظاهر العبودية للكهنوت.

فالأرض كلها محراب كبير للمسلم، فحيثما توجه يسطيع أن يتجه بعبادته إلى الله؛ وفي هذا يقول القرآن العظيم ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] ويقول الرسول الكريم في بيان الخصائص التي أعطيتها أمته ولم تعطها أمة قبلها: «وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل»[2].

وقد كانت هذه الخصيصة للعبادة الإسلامية موضع الإعجاب العظيم والتأثير البالغ من كثيرين من غير المسلمين، حتى من رجال الأديان أنفسهم، حتى قال أحدهم - وهو أسقف «لوفروا»: لا يستطيع أحد يكون خالط المسلمين لأول مرة، ألا يدهش ويتأثر بمظهر عقيدتهم؛ فإنك حيثما كنت سواء أوجدت في شارع مطروق أم في محطة سكة حديدية أم في حقل - كان أكثر ما تألف عينك مشاهدته أن ترى رجلًا ليس عليه أدنى مسحة للرياء، ولا أقل شائبة من حب الظهور، يذر عمله الذي يشغله كائنًا ما كان،

---

(١) الذين يتعمقون في دراسة التاريخ يعلمون حق العلم أن حركة الإصلاح الديني في أوربا إنما يرجع الفضل في إيجادها إلى أثر الإسلام وعقيدة التوحيد، التي مست أوربا نفحة منها عن طريق الصلات المختلفة في السلم والحرب وقد كتب المرحوم الأستاذ أمين الخولي بحثًا في «صلة الإسلام بالإصلاح في المسيحية».

(٢) رواه الشيخان.

وينطلق في سكون وتواضع لأداء صلاته في وقتها المعين».

ولقد كان هذا المشهد الفريد في الأديان أحد العوامل التي أثرت في وجدان المحامي الكبير الأستاذ زكى عريبى عميد الطائفة اليهودية في مصر والذي اهتدى إلى الإسلام في عام ١٩٦٠. ومما جاء في محاضرته «لماذا أسلمت؟» قوله :

«وما سمعت المؤذن يؤذن في الفجر أو في الظهر أو في أي وقت آخر إلا شعرت بأن صوت المؤذن الذي ينبعث من الأفق من فوق المئذنة ، شعرت بأنه صوت الله ، الذي يفصل بين الحق والباطل والحلال والحرام ، ويهدي الإنسان إلى الطريق المستقيم. وأركب السيارة في السفر وعلى الطريق بين الحقول وبين الفضاء تقع عيني على رجل متواضع يقف بين يدي الله في ثياب رثة مهلهلة ، يقف على مصلى صغير ، مفروش بالرقيق من الحصير على شاطئ ترعة متواضعة أيضًا. . يقف الرجل يصلي لله في خشوع وابتهال ، فكانت نفسي تهفو إلى أن أصلي مثل صلاته. كنت أعتقد أن هذه نفحات الله في الأرض يلقيها في نفوس عباده الصالحين».

حرَّر الإسلام العبادة من القيود المكانية المتزمنة ، ولم يشترط المكان الخاص في عبادة من عباداته إلا في الحج ، لما فيه من فوائد تفوق فائدة التحرر من المكان ، من التجمع العالمي للمسلمين حول أول بيت وضع للناس ، وفي أرض الذكريات الإبراهيمية ، والذكريات المحمدية. . إلى آخر ما سنذكر في أسرار الحج.

● تحرير الضمير من قيود الوساطة في العبادة

ومع اشتراك المكان لعبادة الحج ، فليس فيه أي شائبة لتأثير الكهنوت. وليس فيه أي ثغرة لتدخل الوسطاء والكهان بين المسلم وبين الله ، وشأنه في ذلك شأنه في سائر عبادات الإسلام.

يقول الأستاذ العقاد [1] : إن عبادات الإسلام قد امتازت بين عبادات الأديان بمزية لا نظير لها ، فهي أرفعها وأرقاها بالنظر إلى حقيقتها ، أو بالنظر إلى جماهير المتدينين بها ،

(١) حقائق الإسلام ص ١١٢ .

وتلك مزيته البينة التي يرعى بها استقلال الفرد في مسائل الضمير خير رعاية تتحقق لها في نظام حياة.

فالعبادات الإسلامية بأجمعها تكليف لضمير الإنسان وحده، لا يتوقف على توسيط هيكل أو تقريب كهانة.

يصلي حيث أدركه موعد الصلاة، وأينما تكونوا فثم وجه الله.

ويصوم ويفطر في داره أو في موطن عمله.

ويحج ليذهب إلى بيت لا سلطان فيه لأصحاب سدانة، ولا حق عنده لأحد في قربانه، غير حق المساكين والمعوزين.

ويذهب إلى صلاة الجماعة، فلا تتقيد صلاته الجامعة بمراسم كهانة أو إتاوة محراب، ويؤمه في هذه الصلاة الجامعة من هو أهل للإمامة بين الحاضرين باختيارهم لساعتهم إن لم يكن معروفًا عندهم قبل ذلك. إنه الدين الذي نتعلم فيه أن الإنسان مخلوق مكلف. لا جرم تقوم عباداته على رعاية حق الضمير واستقلاله بمشيئته أكرم رعاية».

إن عقيدة المسلم في الله لا تتيح مكانًا لأولئك الوسطاء الذين يتحكمون في ضمائر عباد الله.

فاعتقاد المسلم في الله يقوم على حقيقتين:

- **الله فوق عباده**

أولاهما: أنه تعالى فوق عباده علوًّا وقهرًا، وسلطانًا وتصرفًا، لا يشبهه شيء، ولا يحكم عليه شيء، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد. ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٨] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص] والخلق جميعًا عبيد في قبضته، لا يملكون لأنفسهم - فضلًا عن غيرهم- ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

ويتمثل هذا العلو الإلهي على الخلق في آية من القرآن عرفت عند المسلمين بآية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

● الله مع عباده

والحقيقة الثانية: أنه تعالى - مع عظمته وعلو شأنه - قريب من خلقه، بل هو معهم أينما كانوا، في جلوتهم وفي خلوتهم، يسمع ويرى، ويرعى ويهدي، يعطي من سأله، ويجيب من دعاه، فهو تعالى قريب في علوه، عليّ في دنوه. وقد جمع تعالى بين العظمة والعلو، وبين القرب والدنو، في آية واحدة، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وقد عَبَّرَ القرآن على لسان إبراهيم -أبي الأنبياء- عن العلاقة بين الإنسان والله فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٢].

وقال الله سبحانه مبينًا قربه من عبده: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٥].

وروى المفسرون أن رجلًا جاء يسأل النبي ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزل القرآن يجيب عن هذا السؤال بهذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ومن اللطائف في هذه الآية: أن سؤال الرسول ﷺ عن بعض الأمور قد وقع في القرآن

بضع عشرة مرة، وكان كل جواب عن تلك الأسئلة مقترنًا بكلمة «قل» مثل ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ﴾ [البقرة: ١٨٩] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] وكان مقتضى تلك الآيات أن يقال في هذه: وإذا سألك عبادي عني فقل: إني قريب، ولكن أسلوب الآية خالف المعتاد ولم يأمر الله رسوله أن يقول للناس ذلك، وقال سبحانه مباشرة ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ ولهذا السلوب دلالته وإيحاؤه في الأنفس والعقول؛ إذ لم يجعل الله واسطة بينه وبين عباده؛ كأنه قال لرسوله: لا تبلغهم أنت عني، كما تبلغ في أسئلة الأحكام، ولكن دعني أنا أقول لهم: إني قريب!

ولما رأى النبي ﷺ أصحابه يجهرون بالدعاء قال لهم: «أربعوا على أنفسكم. إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا ولكن تدعون سميعًا قريبًا»[1].

● لا مكان للوسطاء في الإسلام

وبهاتين الحقيقتين: أنه تعالى فوق عباده قهرًا وعلوًّا وسلطانًا، وأنه قريب منهم، بل معهم، علمًا وإحاطة، رعاية وإجابة - يتبن لنا أن لا مكان في الإسلام للوسطاء والسماسرة الذين يدعون الشفاعة عند الله، ويزعمون احتكار الوساطة لديه، ويبيعون ويشترون في خلق الله، كما يصنع أنصار الملوك الجبارين، والرؤساء المستبدين.

نعم. لا مكان لهؤلاء، لأن الله في عقيدة الإسلام أجَلّ وأعلى من أن يكون له وسطاء أو شفعاء يعلمونه من أمر الناس بما لم يكن يعلم، أو يوجهون إراداته إلى ما يكن يريد، وهو سبحانه أكرم من أن يدع رحمته وجنته غنيمة لهؤلاء الدجاجلة المضللين، يوزعونها بالأسهم والقراريط، فله وحده الخلق والأمر، وله وحده المِلك والمُلك، وله وحده العقوبة والعفو، وقد قال تعالى ردًّا على من زعم أن الملائكة أبناء الله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٨].

وردًّ على من زعم من اليهود والنصارى: أن لهم منزلة خاصة من الله ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ

(١) رواه البخاري.

وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

[المائدة: ١٨].

وحكى عن المسيح أنه يقول لربه يوم القيامة في شأن من ادعو الانتساب إلى دينه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨].

وعرَّف خاتم رسله محمدًا ﷺ حدود وظيفته فقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢] ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فهل بعد هذا يمكن أن يعتقد المسلم في وجود «وسيط» يملك «التأثير» في إرادة الله رب العالمين؟!

ثم لا مكان لهؤلاء الوسطاء أيضًا، لأن المسلم لا يشعر يومًا بحاجته إلى أحد منهم في الصلة بينه وبين ربه. إنه يوقن أن الله أقرب إليه من نفسه، وأنه معه حيث كان، وأنه يدنو منه كل ليلة فينادي: هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من كذا؟ هل من كذا؟ وأنه تعالى يحب التوَّابين ويحب المتطهرين، وأنه تعالى إذا تقرَّب عبده إليه شبرًا تقرَّب هو إليه ذراعًا، وإذا تقرَّب إليه ذراعًا، تقرَّب سبحانه إليه باعًا.

إنه يستطيع أن يكلم ربه بلا ترجمان. وأن يناجيه بما شاء حيث شاء ومتى شاء، وأن يقف بين يديه بلا حجاب.

فما حاجته إذن إلى ذلك الوسيط المزعوم؟

إن الوسيط الفذ الذي يعترف به الإسلام هو العمل الصالح مع الإيمان: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

٣- إخلاص القلوب أساس القبول

إن المبدأ الثالث الذي وضعه الإسلام في شأن العبادة : أن أساس القبول لأي عبادة هو إخلاص القلوب لله تعالى. فإن حقيقة العبادة ليس شكلًا يتعلق بالمظهر ، ولا رسمًا يتصل بالجسد ولكنها سر يتعلق بالقلب ، وإخلاص ينبع من الروح ، فإذا لم يصدق قلب المسلم في عبادته. ولم يخلص لله في طاعته ، وأدَّاها رسومًا خالية من الروح ، كما ينطق الأبله بالألفاظ الخالية من المعنى. فهناك يردها الله عليه ، كما يرد الصيرفي النقاد الدراهم الزائفة. قال تعالى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة : ٥] ﴿إِنَآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر : ٢] ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر : ١١] ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤﴾ [الزمر : ١٤].

وقد افترى بعض المبشرين والمستشرقين على الإسلام ، فزعموا أنه لا يعني إلا بالمراسم والأشكال في العبادات ، ولا يعني بالقلب والنية والضمير ، ورد هذه الفرية عليهم مستشرقون آخرون لم يسلم الإسلام منهم أيضًا. . بيد أنهم لم يسيغوا هذا الكذب الوقاح والجهل الصراح.

وقال جولد تسيهر في كتابه عن «العقيدة والشريعة في الإسلام» :

«مما لا شك فيه أن الإسلام شريعة ، فهو يخضع المؤمنين به لأعمال شعائرية. ومع ذلك. . فإن معين التعاليم الإسلامية الأولى -وهو القرآن- يعتبر صراحة : أن الأعمال بالنيات ، ويعد النية معيارًا للقيمة الدينية : ويرى أنه إذا لم تقترن دقة احترام الشريعة بأعمال رحمة وخير كانت قليلة القيمة.

﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي

﴿ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١١٧].

«وفيما يتعلق بشعائر الحج التي نظمها. من بين تقاليد الوثنية العربية [١]- استنادًا إلى كلمة الله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ [الحج: ٣٤]- جعل محمد أهمية كبرى لنية التقوى التي يجب أن تصحب هذه الشعيرة حين يقول: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

والجزاء الأكبر للإخلاص -كما في سورة غافر ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤] ولتقوى القلوب - كما في سورة الحج ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢] - وللقلب السليم - كما في سورة الشعراء ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

فهذه هي وجهة النظر التي تسود في تقدير الفضل الديني للمؤمنين.

«وهذا الإقناع قد نما فيما بعد بفضل التعاليم المستخلصة من السنة، والتي ما لبثت أن شملت جميع نواحي الحياة الدينية، وبفضل نظرية النية والقصد والروح التي تلهم الأعمال، والتي اتُخذت معيارًا لقيمة العمل الديني، فمجرد ظل لباعث من بواعث الأثرة أو الرياء يُجرِّد كل عمل طيب من قيمته» [٢].

فالقلب هو الأساس في الإسلام، وهو موضع نظر الله تعالى، ومحل عنايته، وهو مستند القبول والفلاح في الآخرة. وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم. ولكن ينظر إلى قلوبكم» [٣] «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» [٤]. ويقول القرآن: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣١ - ٣٤].

---

(١) كذب المستشرق هنا، فقد نقى الإسلام شعائر الحج من تقاليد الوثنية العربية، وأبقى منها ما لم يمسه الشرك من بقايا ملة إبراهيم عليه السلام أول من أذّن في الناس بالحج.

(٢) العقيدة والشريعة ص ٣٠، ٣١ط. ثانية بتصرف قليل.

(٣) رواه مسلم. (٤) متفق عليه.

● العبادة المقبولة عند الله

ولهذا يرى الإسلام أن العبادة المرضية عند الله ليس هي ذلك الشبح الخالي من الروح، وإنما هي تلك التي تصاحبها النية الصادقة، ويسرى فيها روح الإخلاص سريان العصارة في أغصان الشجرة الناضرة، فتؤتي في النفس أكلها، وتثمر في الخلق والسلوك ثمرتها. وتذكر صاحب العبادة بحق الله، وتنبه على حقوق الناس. فليست كل صلاة جديرة بالقبول عند الله، فإن من الصلوات ما يُضرب بها وجه صاحبها، ومن هنا قال تعالى في شأن الصلاة المقبولة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فإن الصلاة - كما قال ابن تيمية- فيها دفع لشر مكروه، وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل لخير محبوب، وهو ذكر الله، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه؛ فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها، وأما اندفاع الشر عنه، فهو مقصود لغيره على سبيل التبع. فإن القلب يحب الحق ويريده ويطلبه، فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك، فإنها تفسد القلب، كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل، ولذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].

فإذا لم تؤد الصلاة مهمتها في إيقاظ الضمير، وغرس خشية الله ومراقبته في النفس، تلك التي تؤدي إلى الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، فإن صلاته تلك تكون صلاة بتراء ناقصة، تكون جثة هامدة تنقصها الحياة وقد جاء في بعض الآثار: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له».

وما قلناه في الصلاة نقوله في الصيام، فليس كل صيام يحظى بدرجة الرضا عند الله، ما لم يؤد إلى التقوى التي جعلها القرآن مرجوة بحصوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] فإذا لم يؤد إلى هذه التقوى، وصام بطنه وفرجه، ولم يصم لسانه ولا جوارحه ولا قلبه، فحرى بصيامه أن يُرَد وأن يكون عملة زائفة، وأن ينطبق عليه ما قاله الرسول ﷺ: «من لم يدَعْ

قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يَدَعَ طعامه وشرابه»[1] وقال عليه السلام: «رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر»[2].

ومن أجل ذلك كله كان السلف الصالحون من المسلمين يهتمون بالصوم عن اللغو والحرام، كما يصومون عن الشراب والطعام.

قال عمر: «ليس الصيام من الشراب والطعام وحده، ولكنه من الكذب والباطل واللغو» وروى عن عليٍّ مثله. .

وعن جابر قال: «إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمآثم، ودع أذى الخادم، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صيامك. ولا تجعل يوم فطرك ويوم صومك سواء».

وقال ميمون بن مهران: أهون الصيام الصيام عن الطعام.

وكذلك الزكاة والصدقة، إذا داخلها رياء، أو لحقها منّ أو أذى للفقير، فإن ذلك يفسدها ويحبط ثوابها. فليس المهم هو المال الذي تعطيه اليد الغنية لليد المستحقة، وإنما المهم هو صدق النية، وصفاء السريرة، وإخلاص القلب. وقد قال ابن عطاء: الأعمال صور قائمة وروحها هو وجود سر الإخلاص فيها.

وإننا لنجد هذا المعنى واضحًا في هذه الآيات الكريمة من كتاب الله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣ - ٢٦٥].

وليس بعد هذا التصور القرآني بيان فيما للإخلاص من أثر في قبول الصدقة أو ردّها.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه النسائي وابن ماجه والحاكم.

● بركة النية الصالحة

وقد قص علينا النبي ﷺ قصة رجل مخلص أراد أن يتستر بصدقته، ويعطيها تحت ستار الليل، حيث يكون في مأمن من رياء الخلق، وابتغاء المحمدة والشهرة عند الناس، ولكنه أخطأ السبيل، فوضعها في غير موضعها وأعطاها من لا يستحقها، ولكن صدق نيته وإخلاصه نفعه، وبارك عمله، فلم تذهب صدقته سدى، ولم تضع هباء. فقد روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل: لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق. فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على سارق! فقال: اللهم لك الحمد.. على سارق؟ ! لأتصدقن بصدقة. . فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على زانية! ! فقال: اللهم لك الحمد.. على زانية؟! لأتصدقن بصدقة. فخرج بصدقته فوضعها في يد غني فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على غني! ! فقال: اللهم لك الحمد.. على سارق وزانية وغني؟ !. فأُتي -أي في المنام- فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما صدقتك على زانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله».

وبهذا القصص كان يعلمهم النبي الكريم أن الإخلاص هو ينبوع الخير، وميزان القبول.

● إنما الأعمال بالنيات

وما قلناه هنا عن الصلاة والصيام والصدقة يقال عن الحج وتلاوة القرآن، والجهاد، والهجرة من أجل الدين، وكل عمل شرعه الله ليُتعبد به ويُتقرب إليه. وقد هاجر بعض المسلمين في زمن النبي ﷺ من مكة إلى المدينة من أجل امرأة يهواها تعرف بأم قيس، فسماه من يعرفونه «مهاجر أم قيس» [1].

---

(١) روى سعيد بن منصور في سننه عن ابن مسعود قال: «من هاجر يبتغي شيئًا فإنما له ذلك. هاجر رجل ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس، فكان يقال له: مهاجر أم قيس» ! رواه الطبراني بإسناد صحيح قال: كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها: أم قيس، فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر، فهاجر فتزوجها، فكنا نسميه مهاجر أم قيس. فتح الباري جـ١ .

وفي هذا الشأن حدثهم النبي ﷺ ذلك الحديث الجامع الذي عدَّه بعض المحدثين ربع الإسلام أو ثلثه أو نصفه[1]، والذي افتتح به الإمام البخاري جامعه الصحيح «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

والعجيب أن بعض المستشرقين يشكك في ثبوت هذا الحديث -الذي أجمع علماء الإسلام في كل اختصاص على تلقيه بالقبول -بدعوى أنه حديث آحاد[2].

ونسى المستشرق أن قيمة «النية» في الإسلام لا تعتمد على هذا الحديث وحده[3]، وإنما تعتمد على نصوص وأحاديث كثيرة مستفيضة، تعطي في مجموعها يقينًا جازمًا بأن الأعمال بالنيات، وأن لكل امرئ ما نوى. ولو أخذنا كتابًا كالترغيب والترهيب للحافظ المنذري مثلًا لوجدناه يذكر في فضل النية الصالحة أحد عشر حديثًا، وفي الترغيب في الإخلاص ثلاثة عشر حديثًا، وفي الترهيب من الرياء أكثر من ثلاثين.

فهذا المجموع من الأحاديث وما شابهها، مع ما جاء في القرآن من آيات هو السند اليقين لقيمة النية في الإسلام.

---

(١) قال الحافظ في الفتح: قد تواتر النقل عند الأئمة في تعظيم قدر هذا الحديث، قال أبو عبد الله: ليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدة من هذا الحديث. واتفق عبد الرحمن بن مهدي والشافعي -فيما نقله البوطي عنه- وأحمد بن حنبل وعلى بن المديني، وأبو داوود والترمذي والدارقطني وحمزة والكتاني على أنه ثلث الإسلام، ومنهم من قال: ربعه. قال ابن مهدي: يدخل في ثلاثين بابًا من العلم. وقال: ينبغي أن يجعل هذا الحديث رأس كل باب. وقال الشافعي: يدخل في ستين بابًا.

(٢) يبدو أن المستشرق استغل ما قاله علماء السنة من أن الحديث لم تصح روايته عن النبي ﷺ إلا من طريق عمر، ولا عن عمر إلا من طريق علقمة بن وقاص الليثي، ولا عن طريق علقمة إلا عن طريق محمد بن إبراهيم التيمي، ولا عن محمد إلا عن طريق يحيى بن سعيد الأنصاري وعن يحيى رواه نحو مائتين أو أكثر حتى قيل سبعمائة كما في الفتح.

(٣) قال ابن حجر في الفتح: ورد في معناه عدة أحاديث صحت في مطلق النية، كحديث عائشة وأم سلمة عند مسلم «يبعثون على نياتهم» وحديث ابن عباس «ولكن جهاد ونية» وحديث أبي موسى «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» متفق عليها. وحديث ابن مسعود «رب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته» أخرجه أحمد، وحديث عبادة «من غزا وهو لا ينوي إلا عقالاً فله ما نوى» أخرجه النسائي. . إلى غير ذلك مما يتعسر حصره.

٤- لا يُعبَدُ الله إلّا بمَا شَرَع

المبدأ الرابع الذي دعا إليه الإسلام: أن يتبع المسلم في عباداته الحدود المرسومة له، فليس يكفي أن يقصد بالعبادة وجه الله وحده، ولا يتوجه به إلى أحد أو شيء غيره، بل لابد أن تكون عبادة الله بالصورة التي شرعها الله، وبالكيفية التي ارتضاها، ولا تكون عبادته بما يخترع الناس من أهواء وظنون. قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

فالآية الأولى تأمر بالعمل الصالح مع النهي عن الإشراك بالله، والآيتان الأخريان تشترطان الإحسان مع إسلام الوجه لله سبحانه. فمن أسلم وجهه لله ولم يشرك بعبادة ربه أحدًا فقد أخلص الدين لله وحده، ولكن ذلك لا يكفي ما لم يفعل ذلك ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وما لم يعمل ﴿عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ والإحسان والعمل الصالح أن يتقرب لله بما شرعه الله لا بما وضعه الناس. وقد كان عمر بن الخطاب يقول: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا» وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧، والكهف: ٧، والملك: ٢] مفسرًا معنى أحسن العمل قال: أخلصه وأصوبه. قالوا: «يا أبا على. . ما أخلصه وما أصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، ولا يُقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله. والصواب: أن يكون على السنة» يعني الطريقة المشروعة المرضية عند الله ورسوله.

لقد عَدَّ الإسلام من الشرك أن يُشَرِّع الناس من الدين ما لم يأذن به الله. ومن البدع المردودة الزيادة في العبادات المرسومة أو النقص منها أو التحريف فيها. وقد قال

عليه الصلاة والسلام في شأن الصلاة : «صلوا كما رأيتموني أصلي»[1].

وقال في الحج : «خذوا عني مناسككم»[2].

وحذَّر من كل ابتداع في شئون العبادة والدين : «كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[3] «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد»[4] «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[5].

فليس لإمام من أئمة المسلمين وإن علا كعبه في العلم ، ولا لمجمع من مجامع المعرفة وإن عظم شأنه ، ولا لمعهد من معاهد الثقافة ، ولا لطائفة من المسلمين صغرت أو كبرت ، أن تبتدع في دين الله عبادة جديدة ، أو تزيد على عبادة قديمة ، أو تغير في كيفيتها عما كانت أيام الرسول ﷺ ، فإن الله وحده هو المشرِّع ، والرسول هو المبلِّغ ، ونحن المتبعون ، وفي الاتباع الخير كل الخير ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران : ٣١].

قال الإمام ابن تيمية :

«جماع الدين أصلان : أولًا : ألا نعبد إلا الله ، ثانيًا : ولا نعبده إلا بما شرع ، لا نعبده بالبدع. كما قال تعالى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف : ١١٠].

وذلك تحقيق الشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة أن محمدًا رسول الله.

ففي الأولى : أن لا نعبد إلا الله.

وفي الثانية : أن محمدًا ﷺ هو رسوله المبلغ عنه ، فعلينا أن نصدق خبره ، ونطيع أمره.

وقد بيَّن لنا ما نعبد الله به ، ونهانا عن محدثات الأمور ، وأخبر أنها ضلالة.

قال تعالى : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ

---

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه النسائي .
(٣) رواها مسلم وغيره .
(٤) رواها مسلم وغيره .
(٥) رواها مسلم وغيره .

عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾ [البقرة : ١١٢][1].

وكما أننا مأمورون ألا نخاف إلا الله ، ولا نتوكل إلا على الله ، ولا نرغب إلا إلى الله ، ولا نستعين إلا بالله ، وألا تكون عبادتنا إلا لله - فكذلك نحن مأمورون أن نتبع الرسول ﷺ ونطيعه ، ونتأسى به ، فالحلال ما حلله ، والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه..»[2].

● حكمة تشديد الإسلام في منع البدع

ولقد كان الإسلام حكيمًا غاية الحكمة حين حرَّم -أشد التحريم- على البشر أن يُشرِّعوا في الدين ما لم يأذن به الله ، وأن يبتدعوا صورًا للتقرب إلى الله لم يجئ بها وحيه المعصوم ، حتى أعلن في صراحة قاطعة : أن كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار.

والذي يقرأ تاريخ الأديان يرى الحكمة في هذا التشديد ماثلة للعيان واضحة وضوح الصبح لذي عينين.

● كيف أفسد الابتداع الأديان كلها؟

إن الابتداع في الدين هو الكوّة التي تسلَّل منها الشيطان إلى غاية المتدينين من أتباع الملل ، فأفسد عليهم دينهم وحياتهم ، وخرَّب عليهم عقائدهم وعباداتهم ، ولم يدع في حياتهم الدينية دعامة إلا أتى عليها من القواعد . وفتح عليهم أبوابًا من الفساد لم يستطيعوا بعد إغلاقها.

عن طريق الابتداع زحف الشرك ودخلت الوثنية على الأمم ، حتى الكتابية منها. فأشركوا بالله ما لم يُنَزِّل به سلطانًا ، وعبدوا من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم. قائلين : هؤلاء شفعاؤنا عند الله!

وعن طريق الابتداع جاء الغلو في الدين والتنطع فيه ، وإدخال الحرج والعنت والآصار والأغلال على أتباعه ، واخترع الناس ألوانًا شتى من الشعائر والتعبدات ، كلها عنت وإرهاق ، وتكليف ما لا يكاد يُطاق.

---

(١) وقد تضمنت الآية : إسلام الوجه لله وهو معنى الأصل الأول هنا . والإحسان وهو معنى الأصل الثاني في كلام ابن تيمية .
(٢) العبودية ص ١٧٠ ، ١٧١ .

وعن طريق الابتداع حرَّم الغلاة ما أحل الله من الزينة والطيبات، فأهملوا الدنيا باسم الدين، وخرَّبوا العمران بدعوى الإيمان، وعذَّبوا الأجسام بزعم تصفية الأرواح!

وعن طريق الابتداع حدثت التحريفات الهائلة، والانحرافات الشنيعة في كثير من الأديان، وقع فيها رجال ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

ويكفي أن نتأمل ما ابتدعه النصارى من نظام «الرهبانية» وما فيه من غلو وعتو وقسوة على الطبيعة، وشرود عن الفطرة، لنعلم كيف ينحرف العقل البشري إذا مشى وحده، ولم يعتصم بحبل الله، ولم يستضئ بنوره وهداه. وكيف يجور ويتعسف، ويرتكب أكبر الحماقات والجهالات، مع أن قصده ونيته - فيما يحسب - التقرب إلى الله تعالى[1]؟!

وكذلك نرى مشركي العرب كيف اتخذوا الأوثان وعبدوا الأحجار والأصنام، لتقربهم إلى الله زلفى، فأساس الشرك في الحقيقة هو الابتداع.

وكيف سوّلت لهم شياطينهم تحريم ما أحلَّ الله من طيبات الحرث والأنعام؟ بل كيف زينوا لهم ذبح أولادهم وفلذات أكبادهم، تقربًا إلى الآلهة فيما زعموا، ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم!

وكيف طوَّعت لهم أنفسهم أن يطوفوا بالبيت عراة، كما ولدتهم أمهاتهم، رجالًا ونساء، لا يستحيون ولا يتحرجون. وكيف هم بعملهم هذا - في زعمهم - إلى الله يتقربون؟!

تقرأ في سورة الأنعام نماذج من هذه المبتدعات والتحريمات. . في قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ

(١) اقرأ نماذج من الغلو فيما سنذكره في مبدأ «التوازن بين المادية والروحية».

وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٧ - ١٤٠].

● مجال الابتداع ليس هو الدين

إن مجال الابتداع والابتكار ليس هو الدين؛ فالدين توقيف من الله يجب أن يبقى مصونًا منزهًا عن عبث العابثين وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

أما مجال الابتداع الحقيقي، فهو الدنيا وشئونها، وما أوسعها وما أكثر ما تحتاج إليه من طاقات الافتنان والابتكار. ولهذا حين انتكس المسلمون وساءت حالهم، وفسد أمرهم، وانحل مجتمعهم، أصبح الأمر الطبعي عندهم معكوسًا والوضع مقلوبًا. فوقفوا في شئون الدنيا جامدين كالحجارة أو أشد جمودًا، لا يبتكرون ولا يخترعون ولا يكتشفون، شعارهم: ما ترك الأول للآخر شيئًا! !

وأما في الدين فاخترعوا وابتدعوا من صور التعبد ما لم يأذن به الله ولم ينزل به سلطانًا.

● أثر تحريم البدع في الإسلام

وتحريم الإسلام الابتداع في العبادة، وتشديده في الأمر باتباع ما جاء به الرسول ﷺ قد حفظ على المسلمين عباداتهم، وصانها من التحريف والتبديل، والزيادة والنقصان..

فالعبادات الإسلامية واحدة في جوهرها في كل مذهب من مذاهب الإسلام: الصلاة عند جميع المسلمين منذ عهد الرسول ﷺ إلى اليوم: عند السنيين والشيعة هي هذه الأقوال والأعمال المخصوصة، المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم، خمس صلوات في اليوم والليلة. في كل صلاة عدد معين من الركعات، وفي كل ركعة تلاوة وأذكار وركوع وسجودان عند الجميع، ولكل صلاة شروط متفق عليها من الطهارة وأخذ الزينة، واستقبال القبلة.. وهكذا.

والصوم عند جميع المسلمين يتمثل في هذا الشهر العربي- رمضان- ثلاثين يومًا أو تسعة وعشرين يومًا، يبدأ كل يوم من طلوع الفجر وينتهي عند غروب الشمس.

وهكذا الزكاة والحج كلها عبادات محددة معروفة بتفاصيلها، منقولة عن رسول الله ﷺ بالتواتر القاطع جيلًا عن جيل.

وهذه ميزة لعبادات الإسلام لم يظفر بها دين من الأديان، فكل العبادات في شتى الديانات قد عدت عليها الأيام، وخضعت لتحريف السدنة، وألاعيب الكهنة، وغلو العامة، ولم تجد من يقول للمبتدعين: قفوا عند حدود الله، ولا تشرِّعوا ما لم يأذن به الله.

وهل يستطيع أحد أن ينكر على الكاهن إذا ابتدع أو غيّر، وفي يديه مفاتيح الجنة وملكوت السماء؟ إنه يستطيع أن يطرد من رحمة الله من شاء، ويدخل فيها من شاء، ويبيع من قراريط الجنة ما يشاء! !

أما الإسلام فقد نفى من أول الأمر فكرة الكهنوت واحتكار أسرار الملكوت، وجعل أمر العبادة في أيدى المسلمين جميعًا، وفرضهم حراسًا عليها، وأوصاهم أن يتبعوا ولا يبتدعوا، وأن يأخذوا على يد كل مبتدع محرِّف كائنًا من كان.

وإذا أخذنا الشريعة المسيحية مثلًا وجدناها قد تغيرت وتناسخت على يد المسيحيين أنفسهم، وخرجوا على الناموس الذي أعلن المسيح: أنه جاء ليتمه لا لينقصه.

فقد استحلّوا الخنزير وأحلُّوا السبت، وعوَّضوا منه يوم الأحد، وتركوا الختان والاغتسال من الجنابة، وكان المسيح يصلى إلى بيت المقدس، فصلُّوا هم إلى المشرق. ولم يعظِّم المسيح صليبًا قط فعظموا هم الصليب وغيره. ولم يصم المسيح عليه السلام صومهم هذا أبدًا ولا شرعه، ولا أمر به البتة، بل هم وضعوه على هذا العدد، ونقلوه إلى زمن الربيع، فجعلوا ما زادوا فيه من العدد عوضًا عن نقله من الشهور الهلالية إلى الشهور الرومية. وتعبدوا بالنجاسات وكان المسيح عليه السلام في غاية الطهارة والطيب والنظافة. وأبعد الخلق عن النجاسة، فقصدوا بذلك تغيير دين اليهود ومراغمتهم، فغيروا دين المسيح وتقربوا إلى الفلاسفة وعباد الأصنام، بأن وافقوهم في بعض الأمر ليرضوهم، وليستنصروا بذلك على اليهود[1].

فهذه هي المسيحية، وذلك هو الإسلام.

نعم.. إن بعض المسلمين في بعض الأزمنة قد ابتدعوا في دينهم ما لم يجئ به كتاب

(١) من «إغاثة اللهفان» لابن القيم جـ ٢ ص ٢٧٠ .

ولا سنة ، ولكنهم وجدوا في كل عصر من يجهر فيهم بالحق ، ويردهم إلى سواء الصراط ، ويحيى فيهم السنة ويطارد البدعة ، تصديقًا لوعد الله الذي وعد به هذه الأمة الخاتمة على لسان رسوله ﷺ حيث قال : «إن الله يبعث لهذه الأمة ، على رأس كل مائة سنة من يُجَدِّد لها دينها»(١).

على أن الذي امتاز به الإسلام بلا ريب أن شعائره وعباداته الأصلية بقيت سليمة في جوهرها ، مصونة من التحريف والتبديل.

قال أبو بكر : لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به. إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ. وقد خطب عمر بن الخطاب الناس فقال : أيها الناس.. قد سُنّت لكم السنن ، وفُرضت لكم الفرائض ، وتُركتم على الواضحة ، إلا أن تميلوا بالناس يمينًا وشمالًا.

وقال ابن مسعود : أيها الناس.. لا تبتدعوا ولا تنطعوا ولا تعمقوا وعليكم بالعتيق -المأثور الموروث- خذوا ما تعرفون ، ودعوا ما تنكرون.

وعن الحسن في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة : ١٨٣] قال : كتب الله صيام رمضان على من كان قبلكم ، فأما اليهود فرفضوه ، وأما النصارى فشق عليهم الصوم ، فزادوا فيه عشرًا وأخروه إلى أخف ما يكون عليهم فيه الصوم من الأزمنة. . فكان الحسن إذا حدَّث بهذا الحديث قال : عمل قليل في سُنة -اتباع المأثور- خير من كثير في بدعة.

ولما بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «أيها الناس. . إنه ليس بعد نبيكم نبي ، ولا بعد كتابكم كتاب ، ولا بعد سنتكم سنة ، ولا بعد أمتكم أمة. ألا وإن الحلال ما أحلَّ الله في كتابه على لسان نبيه ، حلال إلى يوم القيامة ، ألا وإن الحرام ما حرَّم الله في كتابه على لسان نبيه ، حرام إلى يوم القيامة. ألا وإني لست بمبتدع ولكني متبع ، ألا وإني لست بقاض -يعني لست بمشرع- ولكني منفذ».

---

(١) رواه أبو داوود والحاكم وصححه والبيهقي في المعرفة عن أبي هريرة وقال العراقي وغيره: سنده صحيح، ورمز له السيوطي بعلامة الصحة. وانظر : فيض القدير للمناوي.

فهذا هو موقف الخلفاء والحكام في الإسلام: متبعون في الدين لا مبتدعون؛ ومنفذون للشرع لا مشرِّعون.

وقد وقف أئمة الإسلام في وجه كل بدعة يراد لها أن تظهر في عبادة الناس لله، حتى وإن بدت صغيرة في عين الرائي، ولكن الصغير يجر إلى الكبير، ومعظم النار من مستصغر الشرر[1].

جاء رجل إلى الإمام مالك وهو بالمدينة وقال له: يا أبا عبد الله. . من أين أُحْرم؟ قال: من ذي الحليفة -مكان إحرام أهل المدينة- من حيث أحرم رسول الله ﷺ. فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد! فقال: لا تفعل. قال: إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر -قبر النبي ﷺ- قال: لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة! قال: وأي فتنة في هذا، وإنما هي أميال أزيدها؟ ! قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصَّر عنها رسول الله ﷺ؟ ! إني سمعت الله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فمع أن الرجل كان يريد الإحرام من أشرف البقاع في المدينة، وهو مسجد الرسول ﷺ وموضع قبره، وأنه يزيد ولا ينقص، حيث يُحْرم من موضع أبعد من الميقات المحدد -خشي عليه الإمام مالك الفتنة في الدنيا، والعذاب في الآخرة، لما يحمل عمله في ثناياه من تفضيل لنفسه ونسبة النقص إلى عمل رسول الله ﷺ.

وقد قال الإمام مالك أيضًا: من أحدث في هذه الأمة شيئًا لم يكن عليه سلفها، فقد زعم أن رسول الله ﷺ قد خان الدين، لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فما لم يكن يومئذ دينًا لا يكون اليوم دينًا»! !

فإذا كان الدين قد أكمله الله وأتم به النعمة، فلا مجال فيه لإحداث زيادة، لأن الكامل لا يقبل الزيادة، ومحاولة الزيادة عليه اتهام له بعدم الكمال.

---

(١) ألفت كتب عديدة قديمًا وحديثًا في الإنكار على البدع المحدثة في الدين، منها: الحوادث والبدع للطرطوشي، والاعتصام للشاطبي، والإبداع للشيخ على محفوظ، وليس من الإسلام للشيخ محمد الغزالي.

٥- التوازن بين الروحية والمادية

التوازن والاعتدال بين الروحية والمادية، أو بين الدين والدنيا، هو المبدأ الإصلاحي الخامس من المبادئ التي دعا إليها الإسلام ورعاها، ليصلح بها ما أفسده محرفو الأديان في مجال العبادة.

● غلو اليهودية في أمر الدنيا

نقرأ أسفار التوراة الخمسة الحالية، فلا نكاد نجد للروحانية أثرًا، ولا نكاد نرى للآخرة مكانًا، حتى الوعد والوعيد في هذه التوراة للمطيعين والعصاة، إنما يتعلقان بأمور دنيوية، وتكاد تستأثر بها النزعة المادية الخالصة فالخصب والصحة والثراء وطول العمر، والنصر على الأعداء ونحوها من المكاسب الدنيوية الحسية العاجلة، هي المثوبات التي تبشر بها التوراة من نفذ أحكام الناموس. وأضداد هذه الأمور من الجدب والمرض والموت والوباء والفقر والهزيمة ونحوها للذين يعرضون عن الشريعة.

ويكفي أن نقرأ هذه النصوص من التوراة لندرك هذه الحقيقة:

«احترموا آباءكم وأمهاتكم لتعمروا طويلًا على الأرض». .

«أعبدوا ربكم الإله الأزلي، وهو يبارك خبزكم وماءكم، ويبعد عنكم العلل والأدواء. . وسيطيل أعماركم». . إلخ.

«إذا أطعتم أمري وحفظتم وصيتي فسأبعث عليكم الأمطار في أوقاتها، فتخرج الأرض ثمرتها والأشجار فاكهتها». . إلخ.

فليس للأجزية الروحية ولا الأخروية مكان في التوراة. .

● إهمال المسيحية لأمر الدنيا

فإذا انتقلنا إلى الإنجيل وجدنا دعوة قوية إلى إلغاء قيمة هذه الدنيا، واعتبار هذه الأرض بمثابة منفى للإنسان، وطلب النجاة والسعادة هناك، في العالم الآخر، حيث تقوم مملكة

السماء ، فمن أراد ملكوت السماء فليعرض عن هذه الأرض ، ومن أراد العالم الآخر ، فليرفض هذا العالم أو هذه الدنيا. وهكذا لا تحس في الإنجيل أن لك في الدنيا نصيبًا ، وأن لك في طيبات الحياة حظًا ، ولا تشعر أن لبدنك عليك حقًا ، وأن لك في عمارة الأرض دورًا.

يقول الإنجيل : «لا يدخل غني ملكوت السموات ، حتى يدخل الجمل في سم الخياط». وقال المسيح لشاب آمن به ودخل في دينه : «إذا أردت أن تكون كاملًا فاذهب وبع ما تملك وأعطه للفقراء ، ثم تعال واتبعني» وقال لتلاميذه : «وإنتم فلا تبحثوا عما تأكلون وما تشربون ولا تهتموا لذلك؛ لأن هذه الأشياء إنما يبحث عنها غير المؤمنين».

● عتو الرهبانية وقسوتها على الطبيعة البشرية

ولم تقف الدعوة إلى التقشف والتزهد وإهمال الحياة الأرضية. عند الحد الذي جاء به الإنجيل ، بل ابتدع أتباع النصرانية نظام الرهبانية ، بما فيه من قسوة على النفس ، وتحريم للزواج ، وكبت للغرائز ، ومصادرة للنزوع إلى الزينة والطيبات من الرزق.

وانتشر هذا النظام العاتي ، وكثر أتباعه ، وأصبح مما يتعبدون به لله ويتقربون به إليه : البعد عن النظافة والتجمل. واعتبار العناية بالجسم ونظافته ونوازعه رجسًا من عمل الشيطان.

ينقل لنا السيد أبو الحسن الندوى عن «تاريخ أخلاق أوربا» للأستاذ «ليكى» صورًا لجموح الرهبانية وغلوها ، تقشعر منها الجلود ، وتفزع القلوب ، وتدهش العقول. وهذه الصور -كما يقول الأستاذ- قليل من كثير جدًا. يقول المؤرخ :

«زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة ، وعظم شأنهم واستفحل أمرهم واسترعوا الأنظار وشغلوا الناس ، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة ، ولكن مما يلقي الضوء على كثرتهم وانتشار الحركة الرهبانية ، ما روى المؤرخون أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفًا من الرهبان ، وفي القرن الرابع المسيحي كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب ، وكان الراهب «سرابين» يرأس عشرة آلاف ، وقد بلغ عددهم في نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر.

ظل تعذيب الجسم مثلًا كاملًا في الدين والأخلاق إلى قرنين، وروى المؤرخون من ذلك عجائب فحدثوا عن الراهب «ماركايوس» أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرص جسمه العاري ذباب سام! وكان يحمل دائمًا نحو قنطار من حديد! وكان صاحبه الراهب «بوسيبيس» يحمل نحو قنطارين من حديد! وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزح! وقد عبد الراهب «يوحنا» ثلاث سنين قائمًا على رجل واحدة ولم ينم ولم يقعد طول هذه المدة، فإذا تعب جدًّا أسند ظهره إلى صخرة! وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائمًا! وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام! وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر، ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون من غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس. يقول الراهب «اتهينس» : إن الراهب «أنتونى» لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره! وكان الراهب «إبراهام» لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة! وقد قال الراهب الإسكندرى بعد زمن متلهفًا : وأسفاه! لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حرامًا فإذا بنا الآن ندخل الحمامات! ! وكان الرهبان يتجولون في البلاد ويختطفون الأطفال ويهبونهم إلى الصحراء والأديار، وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربونهم تربية رهبانية، والحكومة لا تملك من الأمر شيئًا، والجمهور والدهماء يؤيدونهم ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية ويهتفون باسمها، وعرف كبار الرهبان ومشاهير التاريخ النصراني بالمهارة في التهريب، حتى روى أن الأمهات كن يسترن أولادهن في البيوت إذا رأين الراهب «أمبروز»، وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئًا، وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس.

فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حنانًا ورحمة، وعيونهم من الدمع، تقسو قلوبهم وتجمد عيونهم على الآباء والأمهات والأولاد، فيخلفون الأمهات ثكالى، والأزواج أيامى، والأولاد يتامى، عالة يتكففون الناس، ويتوجهون قاصدين الصحراء، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم في الآخرة، لا يبالون ماتوا أو عاشوا. . وحكى «ليكى» من ذلك

حكايات تدمع العين وتحزن القلب.

وكانوا يفرون من ظل النساء ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن في الطريق والتحدث إليهن -ولو كن أمهات أو أزواجًا أو شقيقات- تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية. . وروى «ليكى» من هذه المضحكات المبكيات شيئًا كثيرًا»[1].

● التوازن سمة الإسلام

هكذا كانت اليهودية في إغفالها للآخرة وللروح، وهكذا كانت المسيحية في تحقيرها للدنيا وللجسد.

فلما جاء الإسلام كانت سمته التوازن والاعتدال في كل الآفاق والنواحي. الاعتدال الذي يليق برسالة عامة خالدة، جاءت لتسع أقطار الأرض، وأطوار الزمن، وتشرع لشتى الأجناس والطبقات والأفراد، في مختلف شئون الحياة. الاعتدال بين أشواق الروح وحقوق الجسد، بين بواعث الدين، ومطالب الدنيا. الاعتدال بين العمل لهذه الحياة والعمل لما بعد الحياة.

فلم يطلب الإسلام من المسلم المثالي أن يكون راهبًا في دير، أو عابدًا في خلوة، ليله قائم، ونهاره صائم، كل صمته فكر، وكل كلامه ذكر، وكل نظره تأملات! لا حظ له في الحياة، ولا حظ للحياة فيه.

● حق الله وحق الحياة

وإنما طلب من المسلم أن يكون إنسانًا عاملًا في الحياة، يعمرها ويرقيها ويدفع عجلتها إلى الأمام. طلب منه أن يسعى في مناكب الأرض، ويلتمس الرزق في خباياها، زارعًا أو صانعًا، أو تاجرًا، أو عالمًا أو عاملًا، أو محترفًا بأي حرفة نافعة. بيد أن عليه ألا تذهله مطالب الحياة عن واهب الحياة. عليه ألا يشغله حق الجسد عن حق الروح. عليه ألا تشغله

(١) من كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الطبعة الثالثة - من ص ١٥٨ إلى ص ١٦٠ .

رغائب الدنيا العاجلة عن حقائق الآخرة الباقية. عليه ألا ينسى الله فينسى حقيقة نفسه وماهية وجوده. وفي هذا يقول القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

قال ابن القيم رحمه الله في هذه الآية: تأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفًا عظيمًا، وهو أن من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه، بل نسي ما به صلاحه وفلاحه، في معاشه ومعاده، فصار معطلًا مهملًا؛ بمنزلة الأنعام السائبة، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه، لبقائها على هداها الذي أعطاه إياها خالقها؛ وأما هذا فخرج عن فطرته، التي خُلق عليها. فنسي ربه، فأنساه نفسه وصفاتها وما تكمل به، وتزكو به، وتسعد به، في معاشها ومعادها: قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨] فغفل عن ذكر ربه فانفرط عليه أمره وقلبه، فلا التفات إلى مصالحه وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه، بل هو مشتت القلب مضيعه، مفرط الأمر، حيران لا يهتدي سبيلًا».

ومهمة العبادات أن تأخذ بيد الإنسان حتى لا تغرقه أعمال الدنيا في لجة النسيان، حيث ينسى الله، فينسيه الله نفسه.

مهمة العبادات أن تقوم بالتنبيه والتذكير لمن نسي مولاه، أو غفل عن أخراه، ثم تدع الإنسان يعود بعد أدائها إلى دنياه يلقاها ساعيًا حثيث الخطا، وثيق العرا.

وحسبنا أن نقرأ هاتين الآيتين من سورة الجمعة لنعرف منهما كيف وضعتا المسلم في وضعه الرشيد بين الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩، ١٠].

وهذا هو شأن المسلم: عمل وبيع قبل الصلاة، ثم صلاة وسعي إلى ذكر الله، ثم -بعد انقضاء الصلاة- انتشار في الأرض وابتغاء من فضل الله، وفضل الله هنا هو الرزق والكسب.

ورواد المساجد في الإسلام ليسوا دراويش متعطلين، ولا رهبانًا متبطلين، وإنما هم -كما وصفهم القرآن- ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧] فهم أناس لهم دنياهم وأعمالهم من تجارة وبيع. وما أشد ما تشغل التجارة والبيع، ولكن ذلك لم يلههم عن حق الله تعالى.

● حسنة الدنيا وحسنة الآخرة

وفي سياق الحج يرسم القرآن الكريم لنا صورة واضحة -وإن لم تكن مفصلة ولا مطولة- لصنفين من الناس الذين يدعون الله ويسألونه في تلك المواقف.

صنف ضيق الأفق مطموس البصيرة، كل همه الدنيا. فلا يلتفت إلا إليها، ولا يحرص إلا عليها.

وصنف رحب الأفق، نير البصيرة، وسع قلبه الدنيا والآخرة. فسأل الله الحسنة فيهما جميعًا.

نقرأ في ذلك قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢].

هكذا قسم القرآن الناس في هذا الموقف الذي تسمو فيه الأرواح وتدنو القلوب من ربها، وتهب عليهم نسمات الذكريات المحمدية من قريب، والذكريات الإبراهيمية من بعيد.

قسمان فقط ذكرهما القرآن: طلَّاب دنيا وما لهم في الآخرة من خلاق. وهم ذلك الصنف الذي توعده الله في آية أخرى ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: ١٨].

وطلَّاب دنيا وآخرة يطلبون الحسنة في الحياتين، والسعادة في الدارين، دعاؤهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] وفَسَّر الحسنة في الدنيا بما شئت، من العافية أو المرأة الصالحة، أو الأولاد الأبرار، أو العلم النافع، أو الرزق الواسع، أو المحبة بين الناس، أو نحو ذلك، فكل هذا مما يحقق حسنة الدنيا.

ولم يذكر القرآن القسم الثالث من الناس -بحسب التقسيم العقلي- وهو من لا يطلب إلا حسنة الآخرة، وما له في الدنيا من أرب، وكأنه يعلمنا أن هذا الصنف لا يكاد يوجد في الناس، فالحياة بمتاعبها الجمة، وحقوقها المتنوعة، تفرض على طالب الآخرة أن يدعو ربه ليسر له سبيل دنياه، ويعينه على أداء حقوقها، ويخفف عنه متاعبها.

ثم هو يشعرنا أن إهمال الدنيا، وإهدار شأنها في حساب طالب الآخرة، إنما هو أمر مذموم خارج عن سنة الفطرة، وصراط الدين معًا.

ولهذا لم يقبل رسول الله ﷺ فكرة الانقطاع عن الدنيا من أجل الرغبة في الآخرة، والاعتزال المطلق لعبادة الله؛ وكلما رمق في بعض أصحابه نزعة إلى هذا اللون من السلوك الذي عُرِف في بعض الأديان الأخرى، قوَّم عوج أفكارهم، وهداهم إلى التي هي أقوم، وأعلنهم بهذه الحقيقة التي تميزت بها رسالته العالمية الأخيرة «إن الرهبانية لم تكتب علينا» ليعلموا أن دينهم ليس دين اعتكاف وعزلة. وإنما هو دين حياة وتقدم وعمران.

● لا تغلوا في دينكم

صحيح أن الله فرض على الناس أن يعبدوه، ويتقربوا إليه، ولكن غلو المسلم في العبادة الشعائرية، وشغل الليل والنهار بها وحدها، وهضم حقوق الحياة من أجلها - أمر يرفضه الإسلام ورسول الإسلام.

تزوج عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان شابًا صالحًا نزَّاعًا إلى العبادة والصيام والقيام، فذهب أبوه عمرو يسأل زوجه عن حاله معها فقالت في أدب: نِعْمَ الرجل عبد الله. . لم يطأ لنا فراشًا منذ جئناه!

وشكا عمرو ابنه إلى الرسول ﷺ فأرسل إليه، فجاء. .

ولندع الإمام مسلمًا يروي لنا القصة على لسان عبد الله نفسه قال: كنت أصوم الدهر، وأقرأ القرآن كل ليلة، فلما ذُكِرت للنبي ﷺ.

قال: ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقرأ القرآن كل ليلة؟

قلت: بلى يا رسول الله، ولم أرد بذلك إلا الخير. .

قال: فإنه بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام - وفي بعض الروايات: صوم ثلاثة أيام من الشهر صوم الشهر كله.

قلت: يا نبي الله. . إني أطيق أكثر من ذلك. .

قال: فإن لزوجك عليك حقًّا، ولزورك عليك حقًّا، ولجسدك عليك حقًّا. . قال: فصم صوم داوود نبي الله، فإنه كان أعبد الناس.

قلت: يا نبي الله. . وما صوم داوود؟

قال: كان يصوم يومًا، ويفطر يومًا - وفي رواية: وهو أحب الصيام إلى الله - قال: اقرأ القرآن في كل شهر.

قلت: يا رسول الله. . إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: فاقرأه في كل عشرين.

قلت: يا نبي الله. . إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: فاقرأه في كل عشر.

قلت: يا نبي الله. . إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: فاقرأه في كل سبع، ولا تزد على ذلك، فإن لزوجك عليك حقًّا، ولزورك عليك حقًّا، ولجسدك عليك حقًّا.

وهكذا لقَّنه النبي ﷺ هذا الدرس، وعلَّمه أن للحياة حقوقًا يجب أن تؤدى، كما أن للآخرة حقوقًا يجب أن تُرعى، والعدل في إعطاء كل ذي حق حقه.

وقد تكررت هذه النزعة أكثر من مرة لأكثر من فرد، وكان النبي ﷺ يقاومها بقوة، حتى لا يستشرى خطرها، ويتطاير شررها.

يروي أنس بن مالك: أن رهطًا جاءوا إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، ويبدو أنهم كانوا يتصورونه عليه الصلاة والسلام راكعًا ساجدًا أبدًا، كل ليله قيام، وكل أيامه صيام، ليس لعينه حظ من نوم، ولا لجسده حظ من راحة، ولا لنسائه حظ من قربة، فلما أخبرتهم زوجاته عليه الصلاة والسلام بعبادته، كأنهم تقالوها، ولم تشبع نهمهم للعبادة، فقالوا: وأين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ !!

قال أحدهم: أما أنا فإني أصلى الليل أبدًا.

وقال آخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر أبدًا.

وقال آخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا.

فجاء رسول الله ﷺ إليهم وقال: «أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس مني»[1].

وهكذا عرّفهم النبي الكريم سنة الإسلام وهدي رسول الإسلام، فليست تقوى الله وخشيته بترك الدنيا، والانقطاع للعبادة، فهو أخشى الناس لله، وأتقاهم له، ولكنه ﷺ لم يهدر حقه في الحياة وحق الحياة فيه: «فمن رغب عن سنتي فليس مني».

● سقي النخيل أم تطويل الصلاة

وعن أنس بن مالك قال: كان معاذ بن جبل يؤم قومًا -فدخل حرام «ابن ملحان» وهو يريد أن يسقي نخله. فدخل المسجد مع قوم فلما رأى معاذًا طوَّل تجوَّز في صلاته- خففها وحده قبل أن يفرغ معاذ - ولحق بنخله يسقيه. فلما قضى معاذ الصلاة قيل له ذلك. فقال:

(١) رواه البخاري وغيره.

إنه لمنافق. أيعجل عن الصلاة من أجل سقي نخله؟ فقال : فجاء حرام إلى النبي ﷺ ومعاذ عنده - فقال : يا نبي الله.. إنني أردت أن أسقى نخلًا لي فدخلت المسجد لأصلي مع القوم. فلما طوَّل - أي معاذ - تجوَّزت في صلاتي ولحقت بنخلي أسقيه ، فزعم أني منافق!! فأقبل النبي ﷺ على معاذ ، فقال : أفتَّان أنت؟ أفتَّان أنت؟! لا تطوِّل بهم ، اقرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ونحوها[1].

ولقد وضحت الروايات في القصة أن الصلاة كانت العشاء ، فهي من صلوات الليل ، لا من صلوات النهار وقت العمل والكدح. وذكر بعضها أن معاذًا قرأ فيها بـ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ لا بالبقرة ولا بآل عمران . ومع هذا فإن الرجل قام قبل أن يفرغ معاذ فصلّى وحده وذهب - كل ذلك والرسول ﷺ لم يوجه إليه كلمة لوم أو عتاب، وإنما وجهها إلى إمام القوم الفقيه الجليل معاذ بن جبل «أفتَّان أنت يا معاذ»؟.

وهذا هو الإسلام : دين لا ينعزل عن الدنيا ، ودنيا لا تحيف على الدين !

* * *

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح، والقصة في الصحيحين وغيرهما بألفاظ مختلفة .

obeikandl.com

٦- اليُسر ورفع الحرج

المبدأ السادس الذي رعاه الإسلام في أمر العبادة هو اليسر ورفع الحرج، وإزالة العنت، ووضع الآصار والأغلال عن أعناق المكلفين، الآصار التي عُرفت في بعض الديانات السالفة كاليهودية وغيرها. وقد عَلَّم الله المؤمنين أن يدعوه فيقولوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] والإصر هو الحمل الثقيل، وهو تصوير لما كان في شرائع السابقين من التكاليف الشاقة، فمنها عند اليهود نظام الأعياد التي يعيّدونها لله في السنة، وهي عيد الفطير، وعيد الحصاد. وعيد المظال، وكذلك عيد كل سبت لا يعمل في أدنى عمل، ومن يعمل يوم السبت فجزاؤه القتل، وكذلك سبت المزارع. ففي كل سنة سابعة سبت للأرض لا يُزرع فيها، ولا تُقطف الكروم. بل تُترك الأرض عطلًا، وغلات الكروم مأكلًا لفقراء شعبهم ووحوش البرية، وغير ذلك من التكاليف الغريبة، مثل تحريم طبخ الجدي بلبن أمه، ومثل ما إذا نطح ثور رجلًا أو امرأة فمات المنطوح، يُرجم الثور ولا يُؤكل لحمه، ومثلها كثير.

ولم يكن هذا التشديد والعنت في اليهودية وحدها، بل سادت هذه النزعة أكثر الديانات قبل الإسلام، إن لم نقل كلها.

يقول العلامة سليمان الندوى[1]:

«ما من دين خلا من العبادة لله، لكن الأديان القديمة حسب أتباعها أن الدين يطالبهم بإيذاء أجسامهم وتعذيبها، وأن الغرض من العبادة إدخال الألم على الجوارح، وأن الجسم إذا ازدادت آلامه، كان في ذلك طهارة للروح، ونزاهة للنفس!

«وعن هذه العقيدة نشأ التبتل عند الهنادك، والرهبانية عند النصارى، وابتدعوا من رياضات الجسم أنواعًا عجيبة، أشدها على الجسم أفضلها عندهم، وأقربها إلى الله في

(١) من كتابه «الرسالة المحمدية» المحاضرة الثامنة ص ٢٤١ وما بعدها، ط ثانية بدمشق، وهو الكتاب المعروف في الأوردية باسم «خطبات مدارس».

زعمهم: فمنهم من آلى على نفسه ألا يغتسل طول حياته، ومنهم من لا يلبس إلا المسوح والثياب الخشنة، وبعضهم آلى على نفسه أن يعيش عريان إلا من خرقة يستتر لها، ماضيًا على ذلك مهما أثرت فيه حمّارة القيظ، أو زمهرير الشتاء، ومنهم من لزم كهفًا فلا يبرحه أبدًا، وبعضهم اختار لنفسه أن يبقى واقفًا في حر الشمس طول حياته! ومنهم من يحلف ألا يقتات إلا بورق الشجر! ومنهم من بقي صرورة حصورًا لا يتزوج، ومنهم من يعد من العبادة والقربة إلى الله منع التناسل! ومنهم من يرفع إحدى يديه في الهواء ويبقي كذلك طول عمره، حتى تيبس يده وتجف! وكان بعضهم يحبس نفسه ما استطاع وهو يحسب أن ذلك من العبادة، ولا يزال في الهند من يتعلق بشجرة منكسًا رأسه إلى تحت! وهذا كله وأمثاله مما كان عليه أتباع الأديان قبل مبعث محمد رسول الله ﷺ، ظانين أن أعمالهم هذه من أقرب الوسائل إلى الله، ومن أفضل ما تزكى به النفوس، وتطهر به الأرواح.

«وكان قتل المرء نفسه مما يتقرب به الأقدمون إلى الآلهة، فكانوا ينذرون لآلهتهم قرابين بشرية تذبح كالأضاحي، استرضاء للآلهة، فإذا سفكت دماء البشر لهذا الغرض نثرت دماؤهم على الأوثان، وربما أحرقت لحوم الأضاحي، وجُمِّرَت بها الأصنام، وبخرت بدخانها. ولأجل ذلك كان اليهود يحرقون لحوم الأضاحي».

● بعثت بالحنيفية السمحة

وقد جاءت الشريعة الإسلامية برفع هذه الآصار، وعُرِفَ الرسول ﷺ في كتب الأولين بهذه الأوصاف المميزة ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وامتنّ الله برسوله على الناس فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقد قال ﷺ معرفًا برسالته: «بعثت بالحنيفية السمحة»[1] فهي حنيفية في العقيدة، سمحة في التكاليف والأحكام.

وإنما خصها الله بالسماحة والسهولة واليسر. لأنه أرادها رسالة الناس كافة، والأقطار جميعًا، والأزمان قاطبة، ورسالة هذا شأنها من العموم والخلود لابد أن يجعل الله الحكيم في ثناياها من التيسير والتخفيف والرحمة ما يلائم اختلاف الأجيال، وحاجات العصور، وشتى البقاع.

وهذا واضح في شريعة الإسلام عامة. وفي العبادات خاصة. يقول الله تعالى في بيان رسالة المسلم في الحياة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

ويقول في ختام آية الطهارة من سورة المائدة: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

ويقول في ختام آية الصوم: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ويقول في أعقاب ما ذكره من المحرمات في النكاح، وإباحة ما وراء ذلك بشرطه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ۝٢٨﴾ [النساء: ٢٨].

وبعث ﷺ معاذًا وأبا موسى الأشعري أميرين إلى اليمن فكان من وصيته لهما: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا»[2].

ومن أوصافه عليه الصلاة والسلام أنه «ما خُيِّرَ بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا»[3].

---

(١) رواه أحمد.

(٢، ٣) رواهما البخاري.

ومن أقواله ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يشادّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا»[1].

وإذا كانت وجهة الإسلام هي التيسير، فكل مسلم يبغي التشديد والتعنت إنما يعاند روح الإسلام. ولهذا وقف الرسول الكريم في وجه المتعنتين والمتشددين، وأخبر بهلكتهم ووبالهم. وقال: «ألا هلك المتنطهون. ألا هلك المتنطعون. ألا هلك المتنطعون»[2]. ولم يكن يكرر الكلمة ثلاثًا إلا لعظم خطر مضمونها.

وكان بعض الصحابة قد رغبوا في مواصلة الليل والنهار صائمين لا يفطرون، طلبًا لزيادة المثوبة. فنهاهم عن هذا الوصال، فلما لم ينتهوا واصل بهم يومًا ثم يومًا ثم يومًا. ثم رأوا الهلال - هلال شوال - فقال: «لو تأخر الشهر لزدتكم» كالمنكل لهم حين أبوا أن ينتهوا! وقال: «لو مُدَّ لنا في الشهر لواصلت وصالًا يدع المتعمقون تعمقهم»! وهذا كله كراهية منه للتشديد، وعقوبة للمشددين.

وروى عنه ابن عباس مرفوعًا: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»[3]. وهو الغلو الذي نعاه القرآن على أهل الكتاب ونهاهم عنه ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

روى أبو داوود عن سهل بن أبي أمامة أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك زمان عمر ابن عبد العزيز، وهو أمير، وهو يصلي صلاة خفيفة، دقيقة كأنها صلاة مسافر أو قريبًا منها، فلما سلَّم قال لي: يرحمك الله، أرأيت هذه الصلاة المكتوبة أم شيء تنفلته؟ قال: إنها المكتوبة، وإنها صلاة رسول الله ﷺ، ما أخطأت، إلا شيئًا سهوت عنه، إن رسول الله ﷺ كان يقول:

«لا تشدِّدوا على أنفسكم فيُشدَّد عليكم؛ فإن قومًا شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داوود عن ابن مسعود.
(٣) رواه مسلم.

عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧][1].

والنبي ﷺ يشير في هذا الحديث إلى ما ذكره القرآن الكريم في سورة الحديد عن الرهبانية التي ابتدعها النصارى ولم يقوموا بحقها. قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

بينت الآية الكريمة أن الرهبانية من ابتداع النصارى، ما كتبها الله عليهم، ولا شرعها لهم. وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم، قاصدين رضوان الله بزعمهم[2]. فما رعوها حق رعايتها.

قال الحافظ ابن كثير: وهذا ذم لهم من وجهين: أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله، والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه، مما زعموا أنه قربة تقربهم إلى الله عز وجل».

وفي قوله ﷺ: «لا تشدِّدوا يُشدَّد عليكم» إخبار بأن تشديد الإنسان على نفسه سبب لتشديد الله عليه.

وتشديد الله إما تشريعي تكليفي، وإما تشديد كوني قَدري. وفقًا لنظام الله في الأسباب والمسببات.

فالتشديد بالشرع، كما يشدد على نفسه بالنذر الثقيل. فيلزمه الشرع الوفاء به.

والتشديد بالقدَر، كفعل أهل التزمت والوسوسة: شدَّدوا على أنفسهم، فشدَّد القدر عليهم، حتى استحكم ذلك فيهم؛ وصار صفة لازمة لهم. وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم.

---

(١) والحديث ذكره ابن كثير في تفسير الآية الكريمة عن مسند أبي يعلى وهو في كتاب الأدب من سنن أبي داوود: باب في الحسد.

(٢) هذا على أحد القولين في تفسير ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧] والقول الآخر معناه: ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، كما في تفسير ابن كثير. ولكن الراجح هو التفسير الأول.

● الحكمة في تيسير العبادة ورفع الحرج عن الأمة

وإنما رفع الإسلام الحرج عن أمته، وصد النبي ﷺ تيار التزمت والتشديد، والغلو في الدين لأمرين ذكرهما الإمام الشاطبي في موافقاته[1].

أحدهما: الخوف من الانقطاع في الطريق، وبغض العبادة، وكراهة التكليف، ويتنظم تحت هذا المعنى الخوف من إدخال الفساد عليه في جسمه أو عقله أو ماله أو حاله.

والثاني: خوف التقصير في الواجبات الأخرى، عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالمكلف المختلفة الأنواع، مثل قيامه على أهله وولده، إلى تكاليف أخرى. فربما كان التوغل في بعض الأعمال شاغلًا عنها. وقاطعًا بالمكلف دونها؛ وربما أراد أن يقوم بهذه وتلك على المبالغة في الاستقصاء فانقطع عنهما معًا.

فأما الأول: فإن الله وضع هذه الشريعة المباركة حنيفية سمحة سهلة، حفظ فيها على الخلق قلوبهم، وحببها لهم بذلك، فلو عملوا على خلاف السماح والسهولة، لدخل عليهم فيما كلفوا به ما لا تخلص به أعمالهم. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ﴾ [الحجرات: ٧، ٨] فقد أخبرت الآية أن الله حبب إلينا الإيمان بتيسيره وتسهيله، وزينه في قلوبنا بذلك، وبالوعد الصادق بالجزاء عليه. وفي الحديث: «عليكم من الأعمال بما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا»[2].

وفي حديث قيام رمضان وانقطاعه عن الصلاة بهم في المسجد «أما بعد.. فإنه لم يخف عليّ شأنكم، ولكن خشيت أن تُفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها»[3].

وفي حديث الحولاء بنت تُوَيْت حين قالت له عائشة: هذه الحولاء بنت تويت، زعموا أنها لا تنام الليل! فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تنام الليل؟! خذوا من العمل ما تطيقون، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا»[4].

---

(١) الجزء الثاني ص ١٣٦ وما بعدها. والمنقول بتصرف.
(٢) رواه البخاري.
(٣، ٤) رواهما مسلم.

وحديث أنس : دخل رسول الله ﷺ المسجد ، وحبل ممدود بين ساريتين -عمودين- فقال : ما هذا؟ قالوا : حبل لزينب ، تصلي فإذا كسلت أو فترت أمسكت به. فقال : «حلوه. . ليُصَلِّ أحدكم نشاطه ، فإذا كسل أو فتر قعد»[1].

وحديث معاذ حين قال له النبي ﷺ : «أفتَّان أنت يا معاذ»؟ ؟ حين أطال الصلاة بالناس وقال : «إن منكم منفرين فأيكم ما صلى بالناس فليتجوَّز -أي ليخفف- فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة»[2].

ونهى عن الوصال رحمة بهم ، ونهى عن النذر وقال : «إن الله يستخرج به من البخيل ، وإنه لا يُغني من قدر الله شيئًا»[3] - أو كما قال .

ففي هذا كله نرى المعنى معقولًا ، والعلة واضحة ، من خوف السآمة ، والملل والعجز ، وبغض الطاعة وكراهيتها. وقد جاء عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ، ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله ، فإن المُنْبَتَ لا أرضًا قطع ، ولا ظهرًا أبقى»[4].

وأما الثاني : فإن المكلف مكلوب بأعمال ووظائف شرعية ، لابد له منها ، ولا محيص له عنها ، يقوم بحق ربه تعالى. فإذا أوغل في عمل شاق ، فربما قطعه عن غيره ، ولا سيما حقوق الغير التي تتعلق به ، فتكون عبادته أو عمله الداخل فيه قاطعًا عما كلَّفه الله به ، فيقصر فيه. فيكون بذلك ملومًا غير معذور. إذ المراد منه القيام بجميعها على وجه لا يخل بواحدة منها ، ولا بحال من أحواله فيها.

ذكر البخاري عن أبي جحيفة قال : آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء - وهي زوجه - متبذلة ، فقال لها : ما شأنك؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا! ! فجاء أبو الدرداء ، فصنع له طعامًا فقال له : كُلْ فإني صائم فقال : ما أنا بآكل حتى تأكل ، فأكل. . فلما كان الليل؛ فذهب أبو الدرداء

(١) رواه البخاري وأبو داوود والنسائي . (٢ ، ٣) رواهما البخاري .
(٤) رواه أحمد والبيهقي بلفظ قريب منه .

يقوم فقال : نم ، فنام ، ثم ذهب ليقوم فقال له : نم. . فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصليا ، فقال له سلمان : إن لربك عليك حقًّا ، ولنفسك عليك حقًّا ، ولأهلك عليك حقًّا ، فأعط كل ذي حق حقه» فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك. فقال النبي ﷺ : «صدق سلمان».

وقال ﷺ : «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها ، فأسمع بكاء الصبي ، فأتجوَّز في صلاتي ، لما أعلم من وجد أمه من بكائه»[1].

وأيضًا ، فقد يعجز الموغل في بعض الأعمال عن الجهاد أو غيره ، وهو من أهل الغناء فيه. ولهذا قال في الحديث في داوود عليه السلام : «كان يصوم يومًا ويفطر يومًا. ولا يفر إذا لاقى».

وقيل لابن مسعود رضي الله عنه : إنك لتقل الصوم؟ فقال : إنه يشغلني عن قراءة القرآن؛ وقراءة القرآن أحب إليَّ منه. .

وكره مالك إحياء الليل كله وقال : لعله يصبح مغلوبًا ، وفي رسول الله ﷺ أسوة. .

وبهذا يتبين لنا أن هذا المبدأ تتمة للمبدأ السابق ، فإن الاعتدال المطلوب بين الدين والدنيا لا يمكن أن يتم إلا بتيسير العبادة وتسهيلها.

● رخص وتخفيفات

وإذا كان الإسلام قد بُني على اليسر ورفع الحرج في عباداته وتكاليفه في عامة الأحوال ، فإنه بصفة خاصة شرع ألوانًا من الاستثناءات والإعفاءات والتسهيلات في أحوال خاصة ، وهي تلك التي توجد للإنسان نوعًا من المشقة يؤوده ويثقل ظهره ، ويقعد به عن مواصلة السير.

وقد بينت في كتابي «الحلال والحرام» أن الإسلام قد اعترف بالضعف الإنساني ، وقدَّر لظروف الحياة القاسية قدرها فقرر مبدأً إنسانيًّا هامًّا لا غنى للإنسان ولا للحياة عنه ، هو «الضرورات تبيح المحظورات» وهو المبدأ الذي نص عليه القرآن في غير آية كقوله تعالى :

---

(١) رواه الخمسة إلا أبا داوود.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

هذا في شأن الحلال والحرام.

أما في العبادات فقد قرر الإسلام فيها مبدأً هامًّا كذلك من أجل الحياة والإنسان. ذلك هو مبدأ «الرخص» والتخفيف أو الإعفاء في عياداته إذا اقتضت ذلك مطالب الحياة أو ضروراتها، أو هما معًا.

فالسفر مثلًا تقتضيه مطالب الحياة التي جاء الدين بإقرارها، بل بتمجيدها والدعوة إليها.

كالسفر لطلب الرزق ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] «سافروا تصحوا وترزقوا»[١].

والسفر لطلب العلم «اطلبوا العلم ولو بالصين»[٢].

والسفر للحج إلى بيت الله ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٧].

والسفر لغير ذلك من الأغراض الدينية والدنيوية.

والمرض مثلًا من ضرورات الحياة وبلائها الذي لا يكاد يسلم منه إنسان، بمقتضى النشأة الإنسانية و «التركيب» البشري ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد: ٤].

والجهاد من مطالب الحياة وضروراتها معًا، إذ الإسلام لم يشرعه إلا دفاعًا عن النفس، وتأمينًا للدعوة، ودرءًا للفتنة، وإنقاذًا للمستضعفين، وتأديبًا للناكثين.

وفي هذه الأمور الثلاثة -السفر والمرض والجهاد- قرر الإسلام تيسيرات شتى:

● من رخص الصلاة

فجعل للمسافر في الصلاة القصر: يصلي الرباعية -كالظهر والعصر والعشاء- ركعتين فقط، وقال الرسول ﷺ في ذلك: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»[٣].

---

(١) مرسل حسن رواه عبد الرزاق في جامعه.
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان وابن عبد البر في جامع بيان العلم.
(٣) رواه مسلم وأصحاب السنن.

ورخَّص له في الجمع بين الصلاتين -الظهر مع العصر، والمغرب مع العشاء- فأجاز جمعهما في وقت إحداهما تقديمًا أو تأخيرًا.

كما رخَّص للمريض أن يُصلي قاعدًا أو مضطجعًا على جنبه، أو مستلقيًا على ظهره، حسب استطاعته، وليس على المريض حرج.

وفي «الطهارة» -التي هي شرط لصحة الصلاة- رخَّص لمن يتعذر عليه استعمال الماء من مريض أو مسافر أو نحوهما أن يترك الوضوء إلى التيمم بالصعيد الطيب من رمل أو تراب أو حجر أو نحوه، تيسيرًا من الله، ورحمة بعباده، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وقد ذكر القرآن هذا الحكم أيضًا في سورة النساء قائلًا: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

وفي هذه الآيات يتبين للمسلم أن هذه الرخص في العبادات مظهر يتجلى الله فيه بأسمائه: العفو الغفور، الكريم الرحيم، الذي يريد أن يطهر عباده ويتم عليهم النعمة.

ولله ما كان أفقه عمرو بن العاص حين بعثه رسول الله ﷺ في غزوة ذات السلاسل، فاحتلم في ليلة شديدة البرودة، وأشفق إن اغتسل أن يهلك، فتيمم ثم صلى بمن معه صلاة الصبح، وكأن أصحابه لم يقنعهم هذا العمل من عمرو، فلما قدموا على رسول الله ﷺ ذكروا ذلك له فقال له الرسول: يا عمرو! صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فقال عمرو: ذكرت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] فتيممت ثم صليت، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا»[1].

فضحك الرسول ﷺ وسكوته دليل على إقراره لعمرو، بل على إعجابه بفقهه في هذه القضية رضي الله عنه.

---

(١) رواه أحمد وأبو داوود والحاكم والدارقطني وابن حبان.

● من رخص الجهاد

وفي الجهاد شرع الله صلاة الحرب، فجعلها في الرباعية ركعة واحدة، تيسيرًا عليهم، وإعانة لهم على عدوهم. قال ابن عباس: «إن الله فرض الصلاة على لسان نبيكم على المسافر ركعتين، وعلى المقيم أربعًا، والخوف ركعة»(١).

وعند التحام الصفوف قَبل من المقاتلين الصلاة كيف استطاعوا ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩] فلا يشترط فيها ركوع ولا سجود ولا استقبال قبلة.

ولم يكن النبي ﷺ وأصحابه يفرِّقون بين الصلاة والجهاد، فتلك عمود الإسلام، وهذا ذروة سنامه، والمصلي يعتبر نفسه في ميدان جهاد، والمجاهد يعتبر نفسه في محراب صلاة!

وقد فرض الله على المجاهدين أن يحملوا أسلحتهم ويأخذوا حذرهم وهم بين يديه خاشعون، ولربهم مبتهلون مناجون ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

وأرسل عليه الصلاة والسلام من فرسانه طليعة له، ليستكشف ويستطلع خبر العدو، وظل عليه الصلاة والسلام يصلي الصبح، وهو يلتفت إلى الشِّعب الذي يجيء منه الفارس، رغم نهيه عن الالتفات في الصلاة، وأنها كانت قرة عينه ونعيم روحه.

وروى عن عمر أنه قال: إني لأجهز جيشي وأنا في الصلاة.

● رخص الصيام

وفي صيام رمضان رخَّص الإسلام للمسافر في الإفطار، بل أوجبه عليه إذا كان في صومه مشقة ظاهرة عليه، ففي الصحيح عن جابر: كان النبي ﷺ في سفر فرأى رجلًا قد اجتمع الناس عليه، وقد ظُلِّلَ عليه فقال: ما له؟ قالوا: رجل صائم. فقال ﷺ: «ليس البر أن تصوموا في السفر».

---

(١) رواه مسلم.

وعن عمار بن ياسر قال: أقبلت مع رسول الله ﷺ من غزوة، فسرنا في يوم شديد الحر، فنزلنا في بعض الطريق، فانطلق رجل منا، فدخل تحت شجرة، فإذا أصحابه يلوذون به وهو مضطجع كهيئة الوجع، فلما رآهم رسول الله ﷺ قال: ما بال صاحبكم؟ قالوا: صائم، فقال رسول الله ﷺ: «ليس من البر أن تصوموا في السفر، وعليكم بالرخصة التي رَخَّصَ الله لكم فاقبلوها»(١).

وبذلك أثبت النبي ﷺ بكل صراحة: أن الصيام إذا شق على صاحبه في السفر إلى الحد الذي ذكرته الروايات كان إثمًا لا برًّا.

وعن أنس قال: كنا مع النبي ﷺ في السفر، فمنا الصائم ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلًا في يوم حار، أكثرنا ظلًّا صاحب الكساء.. فسقط الصوَّام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية. وسقوا الركاب، فقال رسول الله ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر»(٢).

وهكذا لا يكسب الصائم في مثل هذه الأحوال إلا الجوع والعطش ويكسب المفطر الشبع والري، ومثوبة العمل الاجتماعي لخدمة إخوانه.

وكذلك رخَّص للمريض بالفطر في رمضان؛ ويقضي هو والمسافر عدة من أيام أخر. ولنستمع إلى قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ورخَّص رسول الله ﷺ للمجاهدين بالفطر في الصيام، فعن أبي سعيد قال: سافرنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة ونحن صيام قال: فنزلنا منزلًا فقال رسول الله ﷺ: «إنكم دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم» فكانت رخصة، فمنا من صام ومنا من أفطر، ثم نزلنا منزلًا آخر، فقال: «إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فافطروا». فكانت عزمة فأفطرنا(٣).

---

(١) رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داوود.

وقد استدل الإمامان ابن تيمية وابن القيم بهذه الجملة «إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم» على أن لقاء الأعداء -ولو كان ذلك في غير سفر- يقتضى الإفطار، لأن المسلمين مطالبون بإعداد ما استطاعوا من قوة، والفطر من أسباب القوة.

ومبدأ التخفيف والتيسير في العبادة من أجل هذه الأمور الثلاثة -المرض والسفر والجهاد- مبدأ نزل به القرآن منذ مطلع فجر الإسلام في مكة. ففي سورة المزمل يقول تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

وكان أكثر الناس انشراحًا لهذه الرخص، وانتفاعًا بها، هم الصحابة الذين فقهوا عن رسول الله ﷺ، ونهلوا من نبع النبوة، ولم يحجّروا ما وسّع الله. وكيف لا وقد علموا «أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته»[1]؟!

* * *

(١) رواه أحمد.